تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث

الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله

عرف البربر كسائر البدو منذ اعرق العصور حياة بدائية لم تكن تخلو من مظاهر احتفظت بها قبائل صحراوية واطلسية الى الآن كالملكية الجماعية والاشتراكية الفلاحية والسكنى في اكواخ الطوب بالدساكر والاقتصار في الاكل على الكسكس والصيد وشرب الالبان والعسل والماء القراح ولبس الجبة والبرنس ووضع اكاليل الريش على الرؤوس واستعمال الحراب والاقواس والخناجر والدرقات الجلدية في الحروب وكان المغربي يرسم على الجدران صورا تمثل حياته اليومية في براعة فنية رائعة كما يتحلى النساء بالاسورة والعقود وتمتاز المراة بنقش الاواني الخزفية ونسج الزرابي في تعاريج هندسية وبرز الاطار السياسي القبلي في شكل جمهورية صغيرة يمثلها مجلس منتخب وقد طعمت الحضارة القرطاجنية الشرقية هذه المعطيات الاولية بعادات جديدة كالطربوش والقميص الفضفاض والتكحل والاختضاب بالحناء والاختتان (1) وربما حدت البربر الى التفكير في وضع احرف « تفناغ » على غرار الهجائية الفينيقية التي تكونت منها الالفبائية العربية اذا لم يكن البرابرة قد اقتبسوا ه البادرة مباشرة من الهيروغليفية المصرية في الجناح الشرقي لافريقيا الشمالية ويظهر ان اليهود النازحين من الشام وخيبر لم ينقلوا الى المغرب شيئا جديدا باستثناء الديانة الموسوية ونتف من العبرية لم تترك اثرا يذكر في اللهجات المحلية .

ولعل اول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الاسلامي قد جاءته عن طريق القيروان التي بدات تنصهر فيها الحضارة الاموية بعد مرور ثلاثة ارباع قرن على الهجرة فاقيمت المساجد والدواوين والمسالح والدور الصناعية على غرار ما عرفته دمشق وانذاك من روائع امتزج فيها العنصران الفارسي والروماني واذا اعتبرنا الصلة الوثيقة بين القيروان والمغرب قبل ان تزدهر بالاندلس الحضارة الاموية في اطارها الجديد امكننا القول بان الشام كانت الينبوع المشترك للحضارتين ما لبث ان تعزز بمدد مباشر في عهد الادارسة فاذا ما حاولنا التنظير بين عناصر الحضارة الاموية من نشاتها في الشام الى امتدادها بالاندلس لاحظنا وحدة مقومات العمران والبناء والزخرفة والنقش والثقافة والاجتماع والتراتيب الادارية والقضائية في اشكالها ومصطلحاتها الا ان الاندلس لم تتصل بهذه المعطيات قبل وصول عبد الرحمن الداخل عام 137 حيث قضى خمس سنوات بالمغرب الشمالي يحاول عبثا اقامة مملكة اموية لان افواج اليمنيين والقيسيين ظلت في صراع حدا البربر انفسهم الى النزوح الى الريف وطنجة واصيلا بين عامي 134 و 136 هـ ولم تكد الدولة الاموية الجديدة تستقر حتى وضع الادارسة بفاس اسسا عمرانية كانت وفرة مياهها وبساتينها وفنادقها وقيساريتها ومسجديها مظهرا خالدا لعاصمة دمشق .

(1) ماضي افريقيا الشمالية ـ كوتيي ص 148 .

وسواء اكان هذا الاقتباس مباشرا او بواسطة فان الفاظا فارسية دخلت منذ هذا العصر الى المغرب ودخلت معها مسمياتها وقد اشار الثعالبي (1) الى نوعين منها :

1 ـ منسية وعربيتها محكية اوصلها الى مائة وواحد واربعين منها البياع والدلال والبقال والجمال والطراز (الدراز بالمغرب) والخياط والند والبخور والغالية والحناء والمضربة والقمرى والربعة (الربيعة بالمغرب) والخرج والدواة والمرفع والفتيلة والمجمرة (المجمر بالمغرب) والمزراق (انتشر خاصة بالجزائر) والطبل والقنية والهريسة والعصيدة .

2 ـ اسماء تفردت بها الفرس فعربها العرب او تركوها منها الابريق والطبق والقصعة والسندس والياقوت والبلور والسميذ والكمك والكنجبين والجلنجبين والفلفل والكرواياء والقرفة والزنجبيل والسوسن والياسمين والمسك والعنبر والكافور والقرنفل .

كما انتقلت الى المغرب في نفس الفترة من الشام مصطلحات رومية قليلة كالبستان والقسطاس والبطاقة والاسطرلاب والقنطار والقرمود والترياق والقنطرة والقيطون (2) والذى يجعلنا نرجح وجود هذه الالفاظ فى المصطلح الدارج بالمغرب منذ هذا العصر هو ان معظمها يمثل المظهر الجديد للحضارة الاسلامية التى بقي الشعر والشعراء فى منأى عن وصفها لانهم حتى فى دمشق ظلوا فى ابراجهم العاجية يبكون فى اسلوبهم الجاهلي على الاطلال ويتغنون بالماء الآسن فى عنفوان المدنية الناشئة . واول مسجد على النسق المعماري الاسلامي فى المغرب هو ذلك الذى بناه سعيد بن صالح الحميري فى تكور (3) فى نهاية القرن الاول استمد فى تصميمه من جامع الاسكندرية التى ظلت مهبط الرواد المغاربة وعلى راسهم الصوفي احمد البدوي دفين طنطا وكانت البساطة آنذاك هي طابع الفن المعماري الذى لم يعرف بعد المقرنصات ولا التماريج العربية) .

والواقع ان انعدام الاقتباس من الطبيعة والامعان فى دراسة الرياضيات ونزعة الابداع حدت مسلمي الاندلس والقيروان ومصر ثم المغرب الى التسطيرات الهندسية الساذجة التى يظهر انها وسمت الزخرفة فى اوائل العصر الادريسي وكان استمرار الصراع فى الاندلس بين العناصر السلالية المختلفة من عرب وبربر وقوط عائقا دون تفتق الفن حيث لم تكد تمر ست سنوات (4) على تاسيس فاس حتى انحدرت الى المغرب ثلاثمائة اسرة قيروانية تلتها بعد اربع سنوات ثمانمائة عائلة جاءت من ارباض قرطبة معظمها من الفلاحين والمزارعين الذين استقروا بعدوة الاندلس ووصل بعضهم الى فازاز بالاطلس انتجاعا للحقول والمراعي الخصبة واشجار التوت لتربية دود القز وصناعة الحرير بينما كان مهاجرو حاضرة القيروان من الفعلة الذين اقاموا فى عدوة القرويين الخلايا الاولى للحرف والصنائع اليدوية مدرجين بذلك فى المصطلح الصناعي والتجاري مفردات دخلت منذ ذلك فى التقاليد الحرفية لا نستطيع تحديدها بالضبط واذا اعتبرنا ان الوضع الحالي بفاس لا يختلف كثيرا عما كان عليه من حيث الهيكل العام فاننا نلاحظ ان عدوة القرويين تضم معظم مقومات الاقتصاد والثقافة والاجتماع ففيها القياريات والحرف والمدارس والزوايا والفنادق ويبلغ عدد احيائها اثنى

---

(1) فقه اللغة طبعة 1378 ـ 1959 ـ القاهرة ص 450 ـ 455

(2) دار القيطون بفاس اسسها المولى ادريس

(3) مما يبرز تاثير الاندلس احداث الموالي الصقالبة لقرية تحمل اسمهم فوق مدينة تكرور (المسالك والممالك للبكري طبعة الجزائر 1911 ص 97) .

(4) تبلغ الاسر الاندلسية التى هاجرت الى فاس عام 202 هـ \ 818 م اربعة آلاف حسب عبد المالك الوراق وثمانية ءالاف (روض القرطاس ص 25) ودوزي : تاريخ مسلمي الاندلس 1932 ج 1 ص 301) او ثمانمائة (هنري طيراس ـ تاريخ المغرب ج 1 ص 118) بينما بلغ عدد الاسر الافريقية التى جاءت من القيروان عام 198 هـ ثلاثمائة ويعتبر ان عدد الربضيين تراوح بين اربعمائة وثمانمائة اعتبارا للغلط المحتمل الناتج عن اضافة صفر للعدد ونظرا للتوازن الديموغرافي بين العدوتين وقد تحدث المقري فى النفح (ج 1 ص 318 عن الوقعة التي ادت الى طرد الاندلسيين فذكر ان الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل انهمك فى لذاته فخلعه العلماء بقرطبة فاجلاهم عن الاندلس ولحقوا بفاس والاسكندرية ومنها الى جزيرة اقريطش .

عشر مقابل نصفها في عدوة الاندلس و 17 حماما عوض ستة و 96 كتابا قرآنيا بدل 24 وست مدارس بدل النتين (5) .

هذا وان جامع القرويين الذي اسس عام 245 هـ مع شبيهه جامع الاندلس على يد ام البنين واختها مريم الفهرية القيروانيتين لم يكن يثير الانتباه بفن جديد نظرا لعدم اختصاص بنائيه القيروانيين عدا تصميمه الغريب الذي تتوازى بلاطاته مع القبلة على غرار مسجد الشرفاء الادريسي وجامع ابن طولون بالقاهرة وجامعي بعلبك ودمشق وقد اضاف اليه الناصر الاموي عام 345 اي بعد مرور قرن كامل على بنائه اثني عشر بلاطا جديدا وحول المنارة الى مكانها الحالي مغشيا بابها «بصفائح النحاس الاصفر» مع «قبة صغيرة» محلاة بتفافيح مموهة بالذهب» (6) وبذلك انبثقت النواة الاولى للفن الاندلسي المغربي البارز في مسجد قرطبة ومدينتي الزهراء والزاهرة حيث امتزج العنصر السوري بالفارسي والبيزنطي ولعل عهد الناصر الذي ازدهرت فيه الفلاحة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم (7) بالاندلس كان عهد تحول وانقلاب في تاريخ الحضارة المغربية التي بدات تتخذ بالعاصمة الادريسية سمات جديدة في شتى المجالات ، تقل مع ذلك روعة وفخامة عن اصولها بقرطبة اذا اعتبرنا المضافات الاموية بجامع القرويين وقد انتشرت بدائع هذا الفن في حواضر ادريسية كالبصرة واصيلا اصبحت تنافس مدينة فاس .

ومن الصعب ان نتعرف على العناصر الحضارية والمصطلحات التي تسربت الى فاس في القرن الثالث الهجري وان كنا نعرف مما كتبه مؤرخون عرب امثال الحميدي صاحب جذوة المقتبس وابن غالب صاحب فرحة الانفس والروض المعطار للحميري ونفح الطيب للمقري الكثير من ذلك بالنسبة للاندلس حيث اكتملت مظاهر المدنية في الادارة والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة والاجتماع والعمران واول ما يبده الباحث حتى بالنسبة للامويين هو امتزاج العناصر الحضارية بسبب تداخل الاختصاصات وعدم فصل السلط حيث تندرج كثير من مقومات الدولة ضمن البلاط كالجامع والصدقات والاعشار والاموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والرسوم الموظفة على بيوع الاسواق والمكوس والمشرف (8) او الامين ودار السكة وخزانة الطب والحكمة واذا ما حاولنا ان نقارن بين مصطلحات هذا العصر والتعابير المغربية دون تحديد لاطارها الزمني فاننا نلاحظ ان اغلبها

---

(5) ذكر ليفي بروفنصال ان الاندلسيين نقلوا معهم الى المغرب فن البستنة وكذلك تجربتهم للحياة الحضرية كالبناء والصناعة التقليدية (فاس قبل الحماية (Fès avant le Protectorat) وقد لاحظ لوطورنو ص (205) انه اذا كان العرب قد نقلوا الى فاس مظاهر نبلهم فان الاندلسيين قد نقلوا رقتهم والقيروانيين مهارتهم واليهود حيلهم والبربر صمودهم » وقد اعطانا الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه « بساط العقيق » صورة من حضارة القيروان حيث تحدث عن سماطها (يوجد شبيه بفاس وهو سماط العدول الا انه اصغر منه) وحماماتها العمومية (49حماما) ومصانع الزربية (ذات الطابع القيرواني الخاص رغم اصلها الفارسي) والزجاج والبلور والورق ودار الطراز وكان قاضي القيروان شيخا للاسلام في تونس او قاضيا للجماعة كما في فاس وقد لاحظ الاستاذ التونسي في رسالة بالفرنسية ان الطبقة المتمدنة الغنية من الاندلسيين قد نزلت مدينة تونس واختلطت باهلها وقلدهم الحفصيون الذين هم فرع من الموحدين . وقد ذكر المقري عن ابن غالب (نفح الطيب ج 2 ص 764) ان اهل الاندلس تفرقوا في المغرب الاقصى مع الريقية فمال اهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء وعلموا اهل البادية اشياء جديدة .
ومعلوم ان الاندلسيين كانوا يحتكرون ببلادهم ـ حسب سرفانطيس مؤلف دون كيشوط ـ تجارة الاغذية ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها وهم لا يشترون العقارات حفاظا على حرية رواج اموالهم .

(6) زهرة الآس ص 37

(7) ابن حوقل ـ طبعة Goege ج 2 ص 77

(8) هذه الكلمة معناها امين المال وقد استعملها الموحدون (زهرة الآس ص 82) .

متقاربة عدا كلمات لم يعرفها المغرب مثل صاحب البنيان وصاحب البيازرة والاسجال الخراجية وصاحب القطوع (اي الجبايات المرسومة على الاقطاعات) وصاحب الرد (رئيس قسم الشكايات بالقصر الملكي) والكور المجندة والجند المتدون (اي المسجل في الديوان) وفحص السرادق (اي مكان تقام فيه حفلة البروز لتوديع البعوث العسكرية وعقد الالوية) والمهرجان (عيد موسمي منه العنصرة التي تعرف بالمغرب) على ان معظم اسماء الحرف موحدة وكذلك اسماء الازهار والاعشاب والمصنوعات اليدوية وغيرها (9) واستمر هذا الاقتباس طوال قرن ونصف قرن بدافع من بني زيري وخلفاء المنصور ابن ابي عامر الى ان اصبحت الاندلس جزءا من العدوة الجنوبية تحت حكم المرابطين الذين استدعى زعيمهم يوسف بن تاشفين رجال الحرف القرطبيين لاقامة المساجد والسقايات والحمامات والفنادق بفاس (10) ودار الامة بمراكش بينما استعان نجله علي بن يوسف بمهندسي الاندلس لمد قنطرة تنسيفت (11) وقنوات الماء وبناء دار الحجر بمراكش (12) وكان لوحدة افريقية والمغرب الاقصى حينئذ اثرها في ضم الآثار القيروانية الى المدد الاندلسي غير ان من الصعب تمييز الاثرين بوضوح لان جامع القرويين نفسه دخلت فيه مواد اندلسية كالمرمر والآجر والجبس عند تجديده على يد محمد ابن حمدون الاندلسي عام 252 هـ ولم ينس المرابطون الصحراويون اقامة القصبات والحصون في عمرانهم العسكري الذي تعزز بتسوير الحواضر ايام علي بن يوسف بايماز من ابن رشد الاندلسي واذا اردنا دليلا على مدى انسجام الصحراويين المغاربة مع روح العصر واستساغتهم للفن واساليبه ومصطلحاته فان ذلك يتجلى بوضوح في الروائع الجديدة التي اضيفت لجامع القرويين الذي اتخذ حينذاك شكله الحالي بمنبره المصنوع من « الصندل والابنوس والعناب والعاج » (13) وقبته التي كشفتها الحفريات عام 1952 كانموذج للفن في اروع مجاليه .

وهكذا فالفعلة الاندلسيون الذين انتقلوا الى المغرب في العصر المرابطي كانوا اذن اكثر اختصاصا من سلفهم وان كان عملهم لم يتجاوز نطاق هندسة المساجد وبعض المآثر العسكرية لان بداوة الملثميين وتقشفهم حالا دون تقبل عناصر حضارية طريفة زخرت بها آنذاك قرطبة واشبيلية كموسيقى زرياب الذي احدث في الاندلس ثورة جذرية في العادات فكان بحق « مشرع اسبانيا العربية » ، كما يقول دوزي — وظلت المرأة المغربية بدوية الطبع رغم سفورها (14) لم تتفتح للثقافة عدا القليلات امثال زينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين والبطلة الموحدية فاتو وام هانيء بنت القاضي عبد الحق بن عطية وحفصة الركونية استاذة نساء دار المنصور (15) بل استاذة عصرها (16) وام عمر وبنت ابي مروان بن زهر طبيبة النساء في البلاط الموحدي وورقاء الفاسية الاديبة الشاعرة (17) وزينب القرقولية استاذة القراءات السبع بمراكش واقمات وزينب بنت يوسف ابن عبد المومن التي ربيت بالاندلس فكانت صاحبة الراي في البلاط والشغوف في المجتمع وازاء هذه الندرة من المثقفات في المغرب كانت نساء غرناطة يشهدون الحفلات العامة سافرات ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحرا ويتمتعن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية ، كما كان بالربض الشرقي لقرطبة وحده مائة وسبعون امراة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي الذي اتخذ في هذا العصر اشكالا خاصة بالمغرب غير ان الموحدين تفرغوا بالفن الى مستويات راقية بالرغم مما ابدوه في البداية من روح التزمت

---

(9) راجع القائمة الكاملة بهذه المصطلحات في الملحق رقم 3 بكتابنا الصادر في الموضوع والذي نشره معهد البحوث والدراسات العربية بعنوان : (تطور الفكر والحضارة في المغرب الحديث (1969) .

(10) زهرة الآس ص 87 وجذوة الاقتباس ص 27 .

(11) الادريسي — مقتطفات من النزهة — طبع الجزائر 1957 ص 69

(12) الاستبصار — ترجمة Fagnan ص 179

(13) زهرة الآس ص 42

(14) حتى الاميرات لم يكن يتحجبن مما حدا المهدي بن تومرت الى نقد سياسة البلاط الدينية للنيل منه سياسيا .

(15) الدر المنثور في طبقات ربات الحدور ص 165

(16) الاحاطة لابن الخطيب

(17) جذوة الاقتباس ص 335

(18) اضافوا روائع جديدة الى المآثر الاموية تجلت في المنارة الخالدة باشبيلية وجامع حسان بالرباط والكتبية بمراكش والقصور الفخمة والحدائق الغناء (على غرار مسرة المرابطين المعروفة الآن بالمنارة ونضرب مثلا لهذه الروعة بمنبر الكتبية الذى يرجع الى عبد المومن (19) والذى قارنه ابن مرزوق بمنبر جامع قرطبة واعتبره طيراس وباسي (Terrasse et Basset)اجمل ما ابدعه الغرب الاسلامي بل العالم الاسلامي » ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية في المغرب الكبير قد تجلت خاصة في تجديد الاتصال بين الفن المغربي الاندلسي والفنين المصري والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس الخضراء (20) وبذلك تعززت الوصلة الحضارية بين جناحي العروبة واندرجت في المجتمع المغربي مصطلحات كانت عصارة الاحتكاك الموصول طوال خمسة قرون وبذلك يكون في وسعنا اعتبارا لهذه المعطيات ان نستخلص بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية من خلال اسماء الحرف التي ظلت الى القرن الحالي الصناعة الاساسية لنصف سكان الحواضر (21) فمصطلحات الحرف بمراكش كانت تحتوي نظرا لقرب العاصمة من الصحراء على كلمات بلدية (22) او حضرية معدودة مثل بمدي (اي اسكافي بدوي) وخطاطري (حفار الخطارات اي السواقي الصحراوية) ولكموتي (صائغ) وقراشلي (حلاج) في حين تزخر بالالفاظ العربية التي حرف بعضها تسهيلا للنطق بها مثل بامهاود (اي حكم يتدخل بين الناس للمهاودة) ومواكني (مصلح المنجانات) وفواساي (بائع الفاسول) وظل معظمها مما ينيف على المائة في قالبه العربي الفصيح مثل التبان (بائع التبن) والحرار والحراث والحمار والحمالي (بائع الحمام) والخراط والرحوي (صاحب الرحى المائية) والطاحوني (صاحب المطحنة او الطاحونة التي تدار بحركة بغل او حمار) والرخايمي (صانع الرخام) والزيات والسفاط (صانع الاسفاط اي السلال) والعشاب والقطارني (بائع القطران واللباد (صانع اللبد) . اما مصطلحات الحرف والمؤسسات العمومية وغيرها بفاس فاذا استثنينا بعض الدخيل فان الكلمات البربرية اقل بينما تظهر الفاظ خاصة مثل مقدم الحومة ودار معلمة (وهي مدرسة لتعليم الخياطة والتطريز للبنات) وشيوخ الفلاحة (وهم خبراء في الشؤون الزراعية من اصل اندلسي) ودار العميان والمرقطار وسوق الفرش (اي صنع المخاد والحشايا) ومعاصر الزيت وكعب غزال (فارسي) والبلاجة (صانع الاقفال) وصناع الاسلحة الاختصاصيين مثل الجعابية (لصنع جعاب المدسات) والسرايري

---

(18) وقد امر المنصور الموحدي « بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل والاكتفاء منه بالساذج القليل وامر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت ..» (البيان المغرب لابن عذارى ج 4 ص 81) ففي زمن المنصور والناصر الموحديين كان عدد الاطرزة بفاس 094 3 ودور الصابون 47 ودور الدباغة 86 والصباغة 161 وتسكيك الحديد والنحاس 12 والزجاج 11 وكوش الجير 135 وافران الخبز 1170 واحجار صنع الكاغد (اي الورق وهي كلمة تركية) 400 ودور الفخارة 180 (زهرة الآس للجزنائي ص 33) وقد بلغت الارحي بفاس 600 في القرن السابع (حسب ياقوت المتوفى عام 626 هـ في معجمه ج 6 ص 331)

(19) المسند الصحيح الحسن ص 65 – 1925 .

(20) ويليام مارسي ، كتابه حول تاريخ الفن الاسلامي

(21) راجع احصاء قام به ماسينيون عام 1923 – 1924 في كتابنا (معطيات الحضارة المغربية ج 2 ص 78 .وفي كتابه (الحناطي الاسلامية – باريس 1925 ص 38 وقد كان نظام الحناطي (اي النقابات العمالية) يسم في جميع العصور بطابع الحرية حيث ظل المخزن يحترم مبدأ الحرية التجارية والاقتصادية قبل صدور ظهير 1917 القاضي بتنظيم البلديات

(22) الجاحظ يسمي العامية لغة المولدين او البلديين (البيان والتبيين ج 1 ص 111)

لصنع مقابضها) والجوايين (لصنع الاغمدة) والصقالة والدهابين والسكاكين والبراولية (باعة خيوط الحرير) والزرادخية (باعة القماش من نوع الزردخان) والنيارة (صانعو نول النساج) واذا خذنا مثالا لباقي المدن المغربية في شخص اصغر مدينة وهي ميناء ازمور لاحظنا وجود معظم هذه لحرف عدا التنويع في النسيج وحرف جديدة لحرفة البغازة وهم بائعو السمك بالجملة والشراحة هم مجففو الحوت ، وهنالك الفاظ مغربية اندلسية مبتكرة نجدها في كتابات تطور الفكر والحضارة الخ . مثل القسال والقابض بدل الجمركي او الجابي وقد استند السيد محمد كرد علي لهاتين لكلمتين للتدليل على اصالة الابداع اللغوي في المغرب والاندلس (عجائب اللهجات ـ مجلة مجمع للغة العربية ج 7 ص 128 عام 1953) ويلوح لاول وهلة من مقارنة نوع المصطلح في عاصمتي الشمال والجنوب مدى تاثر فاس بالحضارة الاندلسية حيث بدات تظهر مؤسسات اجتماعية واختصاص ادق في بعض المرافق الصناعية بالعاصمة الادريسية ولا بدع في ذلك اذا اعتبرنا ان مدينة فاس اصبحت في عصر الموحدين « حاضرة المغرب » الفكرية اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة « ولا يوجد في الدنيا اكثر مرافق واوسع معايش واخصب جهات منها » كما يقول المراكشي بشيء غير قليل من الغلو على ان الفن بفاس اصبح مزيجا للكثير من العناصر العربية فاذا ضربنا مثلا بالزليج الذي عرف في الشرق بالفسيفساء لاحظنا انه نوع من الترصيع الخزفي اصله من الاندلس كان يصنع منه بالاندلس نوع من المفضض المعروف في الشرق بالفسيفساء (النفح نقلا عن ابن سعيد ج 1 ص 187) والترصيع هو التكفيت (كلمة تركية) لها مرادفات منها التلبيس والترسيب والتنزيل اصلها عند العرب في العهد العباسي التطبيق وفن الترصيع سوري في اصله عرف باوربا الى الآن بالفن الدمشقي Damasquinage وقد دخل الفن العربي الى ايطاليا وبعد الحروب الصليبية غزت المنسوجات العربية الاقطار الاوربية حتى اضطر احد ملوك فرنسا الى تحديد ايرادها « اعراف المسلمين وعاداتهم » (ص 247) .

وقد شمل التعريب معظم المواد والآلات والاجهزة والادوات التي استعملها الصانع المغربي الى العصر الحديث وتكفي القاء نظرة على معجمنا « الاصول العربية في العامية المغربية » للتعرف على مدى فصاحة الاستعراب في هذه المفردات التي نجد منها في الصفحات الاولى للمعجم الفاظا كالاشفى (مخرز الاسكافي) والبريمة والبرمة والبرميل والبوطة والبلور والتبان والترس وتفصيلة الثوب وتكريشه (تقبيضه) والتكة والتنجرة والتومة (القرط) والثلج والحنبل (لفظة يمنية) والحنوط والخرقة والخميرة والخنجر ، ثم ان الفكر العلمي الاندلسي الذي حماه البلاط الموحدي بمراكش لم يكن ليخلو من مظاهر اجتماعية تمثله مثال ذلك البيمارستان (24) الذي احتوى على « النقوش البديعة والزخارف المحكمة » وفرست فيه « الاشجار المثمومات والمأكولات » واجريت فيه « مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك في وسطه احداها رخام ابيض » وما له من « الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والاديم » وتزويده بالادوية والصيادلة « لعمل الاشربة والكحول » مع ثياب الليل والنهار للمرضى ومجانية العلاج ورعاية المنصور الموحدي الشخصية له بزيارة اسبوعية لتفقد حال المرضى وقد اشاد مؤرخ فرنسي معاصر بهذا المستشفى الذي بد في نظره مستشفيات باريس في منفوان القرن العشرين (25) .

وسنرى كيف بلغ المصطلح العلمي اوجه في هذه الفترة التي حاوى خلالها العرش المغربي في ظلال مراكش الحمراء اقطاب الفكر الاندلسي الذين مهدوا بكشوفهم العلمية في شتى الميادين عهد النهضة والانبعاث باوربا حيث ظلوا اساتذتها المرموقين طوال قرون .

---

23) « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » طبع بسلا عام 1357 ـ 1938 (ص 213 ـ 221) لعبد الواحد المراكشي

24) نفس المصدر ص 177

25) الموحدون Les Almohades للسيد Millet ـ طبعة 1927

اما المرينيون الذين كانت لهم ارقى المقومات الملكية بالمغرب وافناها واحقها بتبني التراث الموحدي في افريقية والاندلس فان مغربهم الزاهر كان منطلق الاشعاع في مجموع الشمال الافريقي (26) حيث تبلورت مدنيتهم الحضرية في اروع ما عرفه المغرب الكبير من حواضر ومساجد ومعاهد وقبب وفنادق ومدارس وملاجيء وحمامات وقناطر وحصون وخاصة في عهد ابي الحسن المريني 731 هـ - 752 هـ 1331-1351م الذي يعتبره المغربيون اقوى عاهل في القرن الرابع عشر وقد كان لتزاوجهم الحضاري مع غرناطة النصرية وارلة الاندلس ذيول عززت التراث المشترك الذي ما لبث ان انتقل بكامله مع رجال الهجر الى المغرب ليشكل الحضارة المغربية الاندلسية الموحدة . وقد ظهرت في الحقل الاجتماعي لاول مرة مدارس هي عبارة عن احياء جامعية مجانية للطلبة في مختلف المدن كفاس وتلمسان والجزائر (27) علاوة على قصور فخمة تجلت فيها مهارة المهندسين والفنانين في تصميم معماري محكم ويمكن ان نقدر من خلال وصف (28) لاحد هذه القصور مدى تطور المصطلح الفني والانواع الجديدة من ارباب الصناعات كالبنائين والنجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين ، والجدران المنقوشة بالجبس والزليج والارز المحكم النجارة والصناعات المشتركة كالتوريق والتسطير) مع فروش الرخام والزليج وطيافير (فسقيات) المرمر والقبب والخوخ (اي الابواب) والخزائن بنحاسها المموه بالذهب والحديد المقصدر »

غير ان هذه المظاهر الحضارية لم تتجاوز المدن لان البادية (اي الارياف والسواد) ظلت نسبيا في معزل عن تياراتها بسيطة في سكنها ومطعمها وسلوكها قد حفظت تراثا لغويا اصيلا ما زالت الحواضر تطعمه تدريجيا استجابة لمقتضيات العصر وسنرى كيف ان قبائل عاشت في ارباض عواصم كرباط الفتح ظلت عالقة الى عهد حديث بتراثها اللغوي الجاهلي الخالي من اية شائبة الامر الذي اسفر عن نوع من الخلل بين المصطلح الكلاسيكي القديم ومولدات العصر الحديث .

وقد توافرت هذه المجالي الحضارية ولوازمها اللغوية العربية التركية في العصر السعدي عندما اقتبس المغرب بعض الانظمة العسكرية العثمانية كما دخلت الى المغرب افواج المهاجرين الاندلسيين(29)بلغت في مدن كتطوان اربعين الفا فيهم الاديب والعامل والفنان والعامل المختص والتاجر والفلاح واذا كانت هذه المظاهر تنعكس على العادات الاجتماعية والمآثر العمرانية ، فاننا نلاحظ في خصوص الازياء ان سكان حواضر اندلسية مثل فاس وتطوان والرباط اصبحو يضعون على رؤوسهم قلانس حمراء قد لفت عليها عمامة تتوسطها شوشة زرقاء (اي خيوط مدلاة او النواسة)بعد النفي العام اوائل القرن السادس عشر الميلادي لان الشوشة الزرقاء لم تكن معروفة بالاندلس قبل عصور التفتيش الصليبي (Inquisitions) حيث اجبر الاسبان العرب المسحين على التميز بشارة زرقاء

---

(26) مارسي Marçais — في كتابه « L'Art dans l'Islam » حول تاريخ الفن الاسلامي ص 134 ، وقد ظهرت في هذا العصر نتيجة للتاثير الغرناطي الموسيقى الاندلسية بمصطلحاتها وبعض التعابير القانونية مثل لفظة الظهير بمعنى المرسوم الملكي .
وقد اسهم العلماء والادباء في الصناعة والتجارة مما اكسب الكثير من المصطلحات طابعا فصيحا ومنهم محمد الغساني الذي كان تاجرا بقيسارية عاسفي يدير حانوته بعد الفراغ من تدريس الموطا والسير والنحو والآداب واللغة وهو من رجال القرن السابع (توفي عام 663 هـ (الذيل والتكملة) ومنهم كذلك العلامة محمد بن عبد الله معن الذي كان يتمعش (كلمة مغربية معناها يتعيش) بعمل دود القز بفاس (نشر المثاني في ترجمة علماء القرنين الحادي عشر والثاني ج 1 ص 197) .

27) نخب من « المسند الصحيح الحسن في مآثر ابي الحسن » لابن مرزوق .

28) نفس المصدر حيث اشار ابن مرزوق الى وضع تصميم معماري لهذا القصر وصفه بانه رسم في كاهد لتقدير الساحة (اي المساحة).

(29) في عام 1 019 هـ هاجرت الوف الاندلسيين الى فاس والوف الى تلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الاعراب ونهبوا اموالهم في تلمسان وفاس وسلم اكثرهم في تونس وتطوان وسلا وفسحة الجزائر ووصل جماعة الى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (نشر المثاني عن النفح ص 101) .

ولباس البياض فى مناسبات وفصول خاصة هو ايضا عادة اندلسية حيث كان هؤلاء يخلعون الثياب الملونة ويلبسون البياض ابتداء من يوم المهرجان (اي العنصرة كما تسمى فى العدوتين) اي 24 يونيه وذلك الى اول اكتوبر خلال ثلاثة اشهر متوالية (النفح ج 2 ص 752)

اما فى الحقل العمراني فان « قصر البديع » الذى استغرق بناؤه زهاء العشرين سنة (986 هـ ـ 1002 هـ) يبرز لنا مدى التطور الحاصل فى الفكر الحضاري ولغته فقد ظهرت مع فنون طريفة مصطلحات جديدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية (31) كتبت فى ابهائها الاشعار بمرمر اسود فى ابيض تذكرنا بروائع الاندلس : فمن شعر ابى فارس عبد العزيز الفشتالي يصف هذا الفن قوله :

فانها والتبر سال خلالها
وشي وفضة تربها كافور
وكان ارض قراره ديباجة
قد زان حسن طرازها تشجير
وكان موج البركتين امامه
حركات سحب صافحته دبور
صفت بضفتها تماثل فضة
ملك النفوس بحسنها تصوير

وقد كتب بجدوان المصرية (32) المطلة على الرياض :

باكر لدي من السرور كؤوسا
وارض النديم اهلة وشموسا

وكان هذا الاطار العمراني الرائق مسرحا لحفلات شعبية بمناسبة حفلات ذكرى المولد النبوي يجري خلالها اعداد ابناء المعوزين ويتبارى الشماعون فى تطريز شموع « يحملها صحافون ـ كما يقول الفشتالي فى مناهل الصفا ـ محترفون بحمل خدور العرائس عند الزفاف » وهي على رؤوسهم كالعذارى تتبعها الاطبال والابواق واصحاب المعازف والملاهي حتى تستوي على منصات بالديوان الشريف حيث يقعد السلطان على اريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة وامامه شموع من بيض كالدمى وحمر جليت فى ملابس ارجوان وخضر سندسية فى حسك ومباخر ترنم خلالها نوبات منشدي المولديات واشعار الصوفية وتتلى قصائد شعراء الدولة بغزلها ونسيبها ومديحها للرسول عليه السلام وللسلطان وولي عهده فى تراتيب يتقدمها قاضي الجماعة ثم الامام المفتي ثم الوزير ثم الكتاب المخزنيون ويختم الحفل بنشر « خوان الاطعمة والموائد » و « توزيع الاعطيات » وكان هذه القصور الباذخة فى فرشها الحريرية ونمارقها المصطفة واستارها وكللها وحجالها المخوصة بالذهب وحائطياتها ووصفانها واعلاجها باقبيهم المخوصة ومناطقهم المرصعة وحزمهم المذهبة (33) ـ صورحية لفخفخة استمرت معالمها فى القرن العشرين فى بلاط الملوك العلويين وقصور الاثرياء حيث استعيض عن القصاع المالقية والبلنسية المذهبة وعن الاواني التركية والهندية والطسوس والاباريق والصحاف ومباخر العنبر والعود الشرقية باوعية لا تقل روعة قد جلبت من مختلف انحاء الدنيا شرقا وغربا لتضفي هالة من الجمال والسناء على محافل نشرت فيها كالماضي افصان الريحان الغض وماء الزهر والورد . كما استبدلت بنوبات المنشدين نوبات الموسيقى الاندلسية الرائعة التى تسحر الالباب بنغماتها المشجية وتلاحينها الاخاذة والوانها الخمسة والخمسين وتوشيحاتها التى تتردد فى حنان وخشوع على السنة الخاصة والعامة لتسهم فى تحريك نبرات القلوب وتوعية الروح وتاجيج الشعور وتوفير الثراء اللغوي فى الدارجة والفصحى على

(31) اي التى فيها خمسون ذراعا بالعمل اي بالنقش وكانت الجدران تحلى احيانا بانواع التطريز ومنه النوع الفاسي الذي هو سوري الاصل . وفى سلا نماذج من اصل فارسي او شامي ويلاحظ فى تطريز الرباط تاثير الانسجة الاوربية وكذلك فى ازمور التي يرجع تاريخ نماذجها الاسبانية الايطالية الى القرن العاشر الهجري (مجلة هسبريس ج 21 عام 1935) .
وهناك بفاس تطريز علجي الاصل ادخلته الى المغرب النساء التركيات او الجركسيات اللواتي تسرى بهن اهل فاس اما التطريز التطوانى فهو من اصل بلقاني .

(32) المصرية اي الغرفة الواقعة فى طبقة عليا ولعل لوجود طبقات فى الابنية منذ القديم بمصر اثرا فى التسمية .

(33) راجع النفحة المسكية فى السفارة التركية لعلي بن محمد التامجروتي .

السواء فكم من تعابير تخللت الالحان كانت ارسخ في البواطن واملك للوعي وكم من الغنيات ساحرة رددها الرضيع في حبوه وربة الخدر في حجلتها كان اثرها اوقع في النفس ولفظها اعلق باللسان من كل قصيد يلقن في الكتاب او درس لغوي يلقى في حلقات العلم .

واذا كان عهد السعديين قد نضدت معالمه بالزخارف المعمارية والروائع الاجتماعية فان عهد العلويين الذي اقيمت فيه نفس القصور والبساتين مثل دار الهناء والدار البيضاء والصالحة والزاهرة وجنان رضوان وأجدال بنفس انبذخ قد اتجه الى دعم الكيان بالقصبات والقلاع ومن اروع ما يبدهك في قصر من هذه القصور كقصر الرياض بمكناس عاصمة المولى اسماعيل جمعه بين فخفخة البلاطات الملكية وضخامة التحصينات بابراجها ومدافعها ازاء البرك الفياضة للتمرين والانبساط في فلكها وزوارقها وكانت اهراء القصر تضم اثني عشر الفا من خيل الجهاد وعشرات المستودعات زاخرة بمؤن تكفل للبلاد اكتفاء ذاتيا وميزانا تجاريا متوازنا وقد بدانا بالرغم عن أصالة اللغة العربية بالمغرب نسمع في معماريات العلويين وعمرانياتهم مصطلحات جديدة فيها الكثير من الدخيل كالقنانيط (اي الهياكل) المقبوة في الاهراء والاصطبلات المسقفة بالبرشلة اوهي نوع من انروافد والعوارض Pignon) وسواني الماء الدائرة (اي النواعير المائية) والقراميد علاوة على المولدات العسكرية والدبلوماسية واتخاذ الاشبار (اي حفر الخنادق الحربية) وصنع البارود والكور والبنب (اي القنابل والقذائف) ونصب المهاريس والكراريص (اي المدافع المجرورة والضوبلى) لتحرير الثغور المحتلة وبعث الباشدورات الى طوائف (جمع طائفة) الاصبنيول او البرتغال او «النجليز» لاحكام الصلح ومفاداة الاسرى البلوط بالبلوط واليكانجي باليكانجي والبحري بالبحري دعما للطبجية (اي المدفعية) والبحرية المغربية بفلائطها (سفنها الحربية) وفراكطها (اي حراقاتها) ومراكبها القرصانية. ودخلت الى المعجم المغربي بجانب ذلك عشرات المفردات مثل الكشينة والباصبورط (الجوان) والطنبور والكرنتينة (الحجر الصحي) والمحلة (اي المعسكر) وصاكة الاعشار (اي رسومها) وصقالة (اي برج) والتوافل (الرماح) وتفرقع البونب (اي انفجار القنابل) والبستيون (34) وانواع النقود كالبندقي في اربعين اوقية من الذهب والضبلون (Doublon) في اثنين وثلاثين من الريال (الريال Real فيه عشرون اوقية) والبسيطة (خمس اواق) والموزونة (ربع الدرهم الرباعي اي نصف القرش) والسنجق وبقسماط (بسكويت) وكل تلك مظاهر للعجمة التي بدا المجتمع المغربي يتسم بها حيث « اتخذ ذوو اليسار ـ كما يقول الناصري(35) المراكب الفارهة والكسى الرفيعة والذخائر النفيسة وتانقوا في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لاسيما بفاس ورباط الفتح ولاحت على الناس سمة الحضارة الاعجمية » التي تعززت مع ذلك بمقتبسات غريبة صالحة مثل فابريكة (اي مصنع) السكر وفابريكة تزديج البارود بمراكش وبرج الفنار (لتوجيه السفن في البحر) باشقار قرب طنجة وبابور البر (القطار الحديدي) والتلغراف وهكذا الى غير ذلك وهكذا بدات تتجلى في الافق المغربي على عتبة القرن العشرين مصطلحات استعملها المغرب في قالبها الافرنجي دون تعديل وسنرى بحول الله خلال حديثنا عن تطور هذا الدخيل خلال الحماية وبعد الاستقلال كيف تمت وحدة نسبية بين جناحي العروبة عندما ظهرت الصحافة المغربية واشرابت الاعناق الى ما يرد من الشرق العربي وخاصة من الشام ومصر حيث انبثقت حضارة طريفة ضمت الى جوهر الاسلام ومعطياته جوانب من الفكر الغربي الحديث .

---

(34) استعمل الناصري في تاريخ المغرب هذه المصطلحات التي بدا يستعملها «انذاك سلفه من المؤرخين وقد استعرض الناصري (ص 224) النظام العسكري عند الاتراك فلاحظ ان اهم ما يمتازون به هو العزوف عن العادات الاجنبية والمصطلحات العجمية حيث « عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم واذا كان اصل العمل ماخوذا من العجم فليجتهد المعلم الحاذق في تعريبه » . (راجع الاستقصا الجزء الرابع)

(35) الاستقصا ج 4 ص 233 يصف الوضع بالمغرب عام 1290 هـ وقد شارك الصانع المغربي في معرض باريس عام 1285 هـ (اي في عهد نابليون الثالث) بنماذج من انتاجه كالسروج المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه

الفكر الثقافي

ا) اللغة والادب

لعل اول انطلاقة ادبية بلغة الضاد في المغرب الاقصى هي خطبة طارق بن زياد المشهورة التي انذر فيها الجيش البربري الفتي بانه اصبح في الاندلس « اضيع من الايتام في مادبة اللئام » وهي خطبة حماسية اقرب الى صرخة عسكرية بالفاظ نارية ومر نحو القرن (92 هـ ـ 188 هـ) بين انطلاقة الفاتح البربري نحو الاندلس وبين اعتلاء ادريس الثاني العرش خلا المغرب في غضونه من اي جو ادبي لان العربية نفسها كلفة ظلت تتعثر فلذلك كانت خطبة العرش الادريسية هي الانتفاضة الادبية الثانية القاها وهو ابن احدى عشرة سنة .

وقد ورد فيها بعد الديباجه المالوفة : « انا قد ولينا هذا الامر الذي يضاعف للمحسن فيه الاجر وللمسيء الوزر ونحن والحمد لله على قصد جميل فلا تعدوا الاعناق الى غيرنا فان ما تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا » . وما لبث ان والى خطبه الرائعة كالتي القاها عندما فرغ من بناء فاس : « اللهم انك تعلم اني ما اردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة وانما اردت ان تعبد فيها ويتلى كتابك وتقام حدودك » فهاذان الخطبتان وان كانتا عاديتين في اسلوبهما فانهما يرمزان الى مدى نفوذ العربية خلال القرن الثاني الهجري في المغرب لا سيما وان المولى ادريس كان لا يزال شابا يافعا قد تربى في بيئة بربرية غير ان الوسط الضيق الذي عاش فيه كان عربيا في روحه ولغته (1) قد دعم بمسات من الحرس القيسي واليمني علاوة على ادباء امثال وزيره عمرو بن مصعب الازدي وقاضيه عامر القيسي تلميذ الامام مالك وكاتبه عبد الله الخزرجي ، وبدات منذ هذا العصر افواج من المغاربة تتجه نحو الشرق للحج فتقطع الفيافي طوال شهور مجددة الصلة بالعلماء والادباء من الجزائر الى مصر الى اليمن والحجاز لدعم اسانيد الغرب بأسانيد الشرق في التفسير والحديث والتصوف واللغة والادب وكان البعض يستقر في حواضر شرقية لفترة تقصر وتطول حتى تقوى ملكته في الادب واللغة فاذا عاد الى المغرب كان اسهامه اوفر وابلغ في تحقيق التزاوج الفكري بين جناحي العروبة والاسلام غير ان الفكر الادبي في هذه الفترة كان لا يزال في مخاض قد طغت عليه الاتجاهات الدينية والفقهية والعقائدية فسمكو المدراري بسجلماسة قد سمع من عكرمة في نفس الوقت الذي اخذ محمد القيسي عن مالك وسفيان وحمل ابو جيدة الفاسي في اوائل القرن الثالث التفاريع المذهبية فكان التبادل محدودا بين الشرق والغرب هذا عن طريق الاندلس الى ان انبثق العهد البربري حيث بدات رحلات رسل الفكر تتوالى من الشريف الادريسي الى ابن جبير وابن رشيد والعبدري وابن بطوطة وابن خلدون والحسن الوزان ومآت الاخرين (2) الذين اثاروا اعجاب زملائهم في العواصم الاسلامية بما انتجته قرائحهم وابدوه في مناظراتهم من عمق في الادراك وبعد في النظر ودقة في التحليل في اسلوب كلاسيكي امسى موحدا حتى ليعسر على القاريء ان يتبين بوضوح جنسية الكتاب والقصيد والخطاب لتناسق المصطلحات وتجاوب الدلالات واذا كانت هنالك فروق نسبية في منهجية التفكير والوان التعبير فهي تكمن خاصة في الدراسات العلمية التي سنستعرض بحول الله جوانب منها من خلال الكشوف المستحدثة في الاطار المغربي .

وقد بلغ التجاوب مبلغا حدا ببعض نقاد الفكر الى التنظير بين ادباء وشعراء من الشرق والمغرب الاقصى والاندلس فمنذ العصور الاولى حدثنا البكري عن محمد بن حبوس الفاسي الذي نهج في منحاه الشعري نهج محمد بن هانيء في « قصد الالفاظ الرائعة والقاطع المهولة وايثار التقعير » بينما لقب ابن هانيء بمتنبي المغرب وكان الشرق يتغنى بشعر المغرب والمغرب يردد تلاحين الشرق فهذا ابو هارون موسى بن عبد الله الاغماتي الذي بلغ في جولته بلاد سمرقند يقول :

لعمر الهوى اني وان شطت النوى
لذو كبد حرى وذو مدمع سكب
فان كنت في اقصى خراسان ثاويا
فجسمي في شرق وقلبي في غرب

---

(1) راشد مولاه هو الذي اقراه القرآن وهو ابن ثمان سنين لم علمه الحديث والسنة والفقه والدين واللغة ورواية الشعر وامثال العرب وحكمها (الاستقصا ج 1 ص 70)

(2) راجع بحثنا « رسل الفكر بين المغرب والمشرق » (معطيات الحضارة المغربية ج 1 ص 72) .

وهذا المهدي بن تومرت يتمثل دوما بقول المتنبي :

اذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم

ومن شعره :

اخذت باعضادهم اذ ناوا
وخلفك القوم اذ ودعوا
فكم انت تنهى ولا تنتهي
وتسمع وعظا ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى
تسن الحديد ولا تقطع ؟

وكانك وانت تسمع خطاب احمد بن عطية لعبد المومن الموحدي تتلمس نبرات شعر حطيئة وهو يتشفع الى عمر بن الخطاب في فلذاته :

وصبية كفراخ الورق من صغر
لم يالفوا النوح في فرع ولا فنن
قد اوجدتهم اياد منك سابقة
والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

واذا استثنينا محاولات نادرة فان المغرب لم ينجب فحولا امثال المتنبي والبحتري وابي تمام ولا امثال ابن خفاجة الاندلسي في وصف الطبيعة :

ومن هذه المحاولات التي اكتفت بوصف حركات خارجية دون استبطان الخواص الدقيقة واستكناه الخلجات قول ابن مجبر يصف خيل المنصور وكانه يستعرض ما استعرضه الثعالبي في « فقه اللغة » من تراتيب وتدرجات في الالوان مع مجاز رقيق :

عرائس اغنتها الحجول عن الحلى
فلم تبغ خلخالا ولا التمست وقفا
فمن يقق كالطرس تحسب انه
وان جردوه في ملاءته التفا
واياق اعطى الليل نصف اهابه
وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجا
فاذ حازه دلى له الذيل والعرفا
واشقر مج الراح صرفا اديمه
واصفر لم يمسح بها جلده صرفا
واشهب فضي الاديم مدنر
عليه خطوط غير مفهمة حرفا

وهذا التسراد اللغوي الذي لم يكن يخلو من روائع بديعية قد انعكس على لغة العامة في مزاولاتها اليومية حيث دخلت في معجمها الدارج اسماء عشرات الالوان كالادكن والابلق والارقط والاشخم والاشقر والاشهل والاغر والمبرقش والخمري والبريش (اي مختلف الالوان) (3) .

وتتسم خطب السياسيين المرابطين منهم والموحدين بالطابع الصوفي مع الضرب على نفس الاوتار فمن قول عبد الله بن ياسين : « اياكم ان تجبنوا وتفشلوا فتذهب ريحكم وكونوا الفة واعوانا على الحق واخوانا في ذات الله واياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرئاسة » . ومن نداء وجهه المنصور الموحدي لجيشه بالاندلس يحضه على الاستماتة : « شمروا عن ساعد الجد معاشر المسلمين في جهاد المشركين فمن مات منكم مات شهيدا ومن عاش عاش غانما ماجورا حميدا» . ففي كليهما لون من المفاهيم وضرب من التعابير كاد يصطبغ بها الادب في شتى مجاليه فاستمع للقاضي ابي حفص بن عمر يتحدث عن علم القدماء : « اياكم والقدماء وما احدثوا فانهم عن قولهم حدثوا ، اتوا من الافتراء بكل اعجوبة وقلوبهم عن الاسرار محجوبة » .

ومن الاخوانيات (4) التي ضاهت اروع ما عرفه الشرق في العصر الفني للنثر رسالة للقاضي عياض الى الفتح بن خاقان جاء في مطلعها : « عمادي ابا نصر مثنى الوزارة ووحيد العصر هل لك في منة تفوت الحصر تخف محملا وتبلغ املا وتشكر قولا وعملا شكرا تترنم به الحداة ثقلا ورملا .. الخ » . واخرى من ابن هانيء السبتي متنبي المغرب اجاب بها ابا القاسم الشريف عن قصيدة اهداها اليه جاء فيها : « .. والآن لا ملهج ولا مبهج ولا مرشد ولا منهج عكست القضايا فلم تنتج فتبلد القلب الذكي ولم يرشح القلم الزكي وعم الافحام وغم الاحجام وتمكن الاكداء والاجبال وكورت الشمس وسيرت

(3) اقتصرنا على نماذج قليلة من معجمنا « الاصول العربية والاجنبية للعامية المغربية »

(4) ومما امتازت به الاخوانيات عند اهل المغرب كون الخطاب فيها خطاب المواجهة مثل انت وانا .. وربما خاطبوا الواحد منهم بميم الجمع .. قال ابن شيت في معالم الكتابة « ولا يعرف ذلك لغيرهم (صبح الاعشى ج 8 ص 148) .

الجبال وعلت سآمة وغلبت ندامة وارتفعت ملامة وقامت لنوعي الادب قيامة حتى اذا ورد ذلك المهرق (5)وفرع فصنه الورق تغنى به الحمام الاورق واحاط بعداد عدائه الغصص والشرق وامن من الغصب والسرق واقبل الامل وذهب لاقباله الفرق ... »

ولم يكد يبزغ فجر العصر المريني حتى بدا المزيج الاندلسي المغربي يتبلور فظهر علاوة على ابن خلدون امثال ابن الخطيب وابن زمرك وعشرات الشعراء والمؤرخين والادباء الذين اذكت شعورهم نكبات الفردوس المفقود وقد افاد الادب المغربي من هذا الفيض الذي غمر العواطف وانطلق الالسنة وحرك الاقلام وأسال الشاعريات، ولعل من اروع ما نظم في هذا الباب الملحون الذي نظم منه الشيء الكثير امثال الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن يجيش التازي والشيخ المجاهد محمد بن يحيى البهلولي الذي تعرض الى جانب ذلك اشعارا وزجليات تترقرق عاطفة وحماسا .

وكان نحيب الشعراء ينسكب في مراثي محزنة كلما استولى العدو على مغنى من مغاني الاندلس او مربع من مرابعه ولعل من اشد القصائد تأثيرا تلك التي نظمها شاعر مغربي او اندلسي مجهول لم يعثر على اسمه حتى الآن لما فيها من المعاني الجريئة وقوة الحماس ومرارة الوقع وقد قيلت بعد سقوط طليطلة منها :

لتثكل كيف تبتسم الثغور
سرورا بعد ما يئست ثغور
لقد خضعت رقابكن غلبا
وزال عتوها ومضى النفور

الى ان قال :

فلا تهنو وسلوا كل عضب
تهاب مضاربنا منه النحور
انترك دورنا ونفر عنها
وليس لنا وراء البحر دور !
رضوا بالرق يا لله ماذا
رآه وما اشار به مشير

وقال الامام السهيلي عندما خرب العدو مسقط راسه سهيل :

يا دار ابن البيض والآرام
أم ابن جيران علي كرام !
راب المحب من المنازل انه
حيا فلم يرجع اليه سلام

وكان ابرز ما يمتدح به الملوك اباؤهم وسهرهم الدائب على حفظ كيان الوطن ولو اداهم ذلك الى تقلد الحسام والاستشهاد فقد قال ابو بكر محمد بن صاحب الصلاة عندما قام خطيبا في وفد الاندلس امام الامير عبد المومن الموحدي :

هم الالي وهبوا للحرب انفسهم
وانهبوا ما حدت ايديهم الصفدا

وقد كان لامثال هذه الحماسيات اثر بليغ حيث إذكت نفوس الجماهير والهبت احساسهم واهابت بالملوك لنجدة الاندلس المهدد حتى قال ابن الخطيب موجها مديحه لسلطان المغرب ابي عنان المريني .

والناس طرا بارض اندلس
لولاك ما وطنوا ولا عمروا

وجملة القول انه وطن
في غير عليالك ما له وطر

وقد اوى ملوك المغرب لاجئي الاندلس ومهدوا لهم سبل الحياة الناعمة حتى قال ابن زمرك متشكرا للسلطان ابي سالم المريني :

كم من طريد نازح قذفت به
ايدي النوى في الفقر رهن سفار
بلغته ما شاء من آماله
فسلا عن الاوطان بالاوطار
صيرت بالاحسان دارك داره
متمت بالحسنى وعقبى الدار

ومدحه ابن الخطيب بقوله :

ودم والمنى تدني اليك قطيفها
ميسر اوطار ممهد اوطان

(5) يلاحظ هنا استعمال ابن هانيء لكلمة مهرق وهو صحيفة بيضاء او ثوب الحرير الابيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب عليه وقد قابل به مجمع مصر كلمة Stencil

وكان الشعراء يرسلون زفرات على انتشار عقد الاندلس الذي ظل منتظما نحوا من ثمانية قرون حتى صاح بعضهم حيرة وتحرقا :

كيف السبيل الى احتلال معاهد
شب الاعاجم دونها هيجاءها ؟

وقد قال ابو البقاء صالح بن شريف الرندي :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان في القلب اسلام وايمان

وقال ابو المطرف بن عميرة المخزومي بعد سقوط بلنسية :

يحن وما يجدي عليه حنينه
الى اربع معروفها متنكر
ملاعب افراس الصبابة والصبا
تروح اليها تارة وتبكر

الى ان قال :

وبالجبل الادنى هناك خطى لنا
الى اللهو لا تكبو ولا تتعثر
كذاك الى ان صاح بالقوم صائح
واندر بالبين المشتت منذر
وفرقهم ايدي سبا واصابهم
على غرة منهم قضاء مقدر

وقال الكفيف وهو من فحول الزجالين يرثهون يمدح السلطان ابا الحسن المريني بقصيدة ملحون منها :

عسكر فاس المنيرا الغرا
وبين سارت بوعرايم

وقال ءاخر يمدح السلطان :

اما الجهاد فقد احيى معالمه
وقام منه بمفروض ومسنون
واقام مفروض الجهاد بعزمة
تركت بافئدة العداة فلولا
والله ما ادري وقد حضر الوغى
احسامه او عزمه مصقولا
حطت البلاد ومن حوته ثغورها
وكفى بسعدك حاميا للدار

وقال :

فما رؤوس الكفر الا حصائد
بسيفك سيف الله تجني وتقطف

وقال :

فاق الملوك بسيفه وبسيبه
فبعدله وبفضله يتمثل

وقال القائد محمد بن يحيى اجانا يخاطب مولاي محمد بن الشريف على لسان الشيخ بن زيدان:

يا مالكا سعدت به اوطانه
فيما مضى وزها به المستقبل
نادى بك النصر العزيز لمغرب
ولكم على فاس الجديد الكلكل

فاجابه محمد بن الشريف بقصيدة من انشاد محمد بن سودة الفاسي :

ما من مليك ذاق لذة راحة
الا تجلى له الهوان فيفل

الى ان قال :

وانفض غبار الذل وارفض ثوبه
يزداد وجهك بهجة ويهلل

وهي من الشعر الجريء الذى يذكرنا ببعض حماسيات شوقي التى كتبها حيث كان منفيا في باريس الهب بها شعور مواطنيه .

وهكذا زخر الادب المغربي بعبارات والفاظ حماسية كالعضب ومضارب النحور والسبي والحزن والتحول والرق والوطن والنزوح والاحتلال والاصفاد والعزم والثغور وقطف الرؤوس والنصر وغبار الذل ومآت اخرى تكاد تتفجر ايمانا وحيوية ولعل هذه النبرات هي من اغنى الآداب العربية في الحقل القومي نظرا لتتابع الويلات على الاندلس وما كان لهذا اللون من الحماسيات ان يتفتق بمثل هذه القوة في الشعر العربي بالمشرق الا ايام الحروب الصليبية وعند احتلال نابليون لمصر وكانت الصدمة ورد الفعل الوطني قويين لان المغرب ظل منذ فجر الاسلام محتفظا بكيانه واستقلاله ولم يخضع حتى لدار الخلافة العثمانية التى بسطت نفوذها على جل اقطار الشرقين الادنى والاوسط وبقاع شاسعة على طول الضفة الاوربية للبحر المتوسط ولم ينج من نفوذ آل عثمان حتى المغربان الاوسط والادنى فكان من الطبيعي ان تتمخض في المغرب على اثر محاولات الاعتداء الاجنبية في القرن التاسع حركة وطنية وطيدة افاد منها تراثنا الفكري كنزا ادبيا يكاد يكون فريدا في بابه .

وقد عرف المغرب الوانا اخرى للشعر انطبعت بالملق للملوك واحيانا بعمرانيات رقيقة واكبت الادب الشرقي في عصره الكلاسيكي الذى حفل بالكليشهات المتحجرة .

فمن ذلك قول ابي فارس الفشتالي ينوه بفتح السودان :

جيش الصباح على الدجى متدفق
فبياض ذا لسواد ذلك يمحق

وكانه رايات عسكرك التي
طلعت على السودان بيضا تخفق

وعلى لسان قصر البديع الذى شاده المنصور بمراكش :

سموت فخر البدر دوني وانحطا
واصبح قرص الشمس في اذني قرطا

وصفت من الاكليل تاجا لمفرقي
ونيطت بي الجوزاء في عنقي سمطا

ولاحت باطواقي الثريا كانها
نثير جمان قد تتبعته لقطا

وللقاضي ابى القاسم بن علي الشاطبي في مجلس المنصور :

ما بال طيفك لا يزور لمامنا
وبمنحنى الاحشا ضربت خياما

ابعيش فيك عواذلي لساموهم
واموت فيك صبابة وغراما

ولمحمد بن علي الهوزالي المعروف بالنابغة عند ابلال المنصور من مرضه :

تردى اذى من سقمك البر والبحر
وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر

وبات الهدى خوفا عليك مسهدا
واصبح مدهور الفؤاد الندى الغمر

الى ان قال :

لئن صدئت بيض المعالي لقد فدت
تسيء الكماة البيض واللدن السمر

وانشد محمد بن علي الفشتالي عند فتك المجاهدين بالعدو في سبتة ايام المنصور (عام996 هـ)

هذه سبتة ترف عروسا
نحو ناديك في شباب تشيب

وهي بشرى وانت كفؤ اللواتي
كافلات بعلها بفتح قريب

وقال ابن القاضي عند تحرير اصيلا :

يا ايها المنصور ابشر بالعلى
فالله ابلغ في العدا المامولا

انضاكم سيفا لحتف عداته
وبكم غدا سيف الردى مفلولا

وفي عهد السلطان الغالب بالله السعدي زار وزيره وابن اخيه محمد بن عبد القادر مدينة فاس صحبة عالمين هما قاضي الجماعة عبد الواحد الحميدي واحمد المنجور فلما تبدت لهم معالم المدينة ارتجل الوزير :

اخلائي هذا المستقى وربوعه
وهذي نواعير البلاد تنوح

وذاك المصلى مطرح الشوق والاسى
وتلك منازل الديار تلوح

فاجاب الحميدي :

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد
بهن غوان طرفهن جموح

يمس كاملود من الروض يانع
شذاهن من حول الديار يفوح

فعقب المنجور مرتجلا :

ويرفلن في الحلات يختلن في الحلى
وليهن انواع الجمال وضوح

يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر
لاقبال حب طال منه نزوح

ومن شعر السلطان زيدان بن المنصور يتغزل في السوالف والخدود :

فتنتنا سوالف وخدود
وعيون مدعجات رقود

ووجوه تبارك الله فيها
وشعور على المناكب سود

اهلكتنا الملاح وهي ظباء
وخضعنا لها ونحن اسود

ومن روائع النثر ما كتب به المنصور الدهبي الى الشيخين البدر القرافي والزين البكري : « هذا وانه اتصل بعلي مقامنا كتابكما الذى صدحت على افنان البلاغة سواجعه وعذبت فى موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ولطفت فى كل معنى من المعاني افانينه ومنازعه وتألفت على الاجادة فى كل مقصد من المقاصد مواصله العذبة ومقاطعه واينعت بازهار العناية الربانية اباطحه الفيح واجارعه .. »

كانت بعض الالقاب والنعوت تتسرب من المشرق فتثير نقدا لاذعا لدى علماء المغرب مما حدا ابن الحاج الفاسي الى القول : « يتعين على العالم ان يتحفظ من هذه البدعة التى عمت بها البلوى وقل ان يسلم منها كبير او صغير وحد ما اصطلحوا عليه من تسميتهم بهذه الاسماء القريبة العهد بالحدوث التى لم تكن لاحد ممن مضى بل هي مخالفة للشرع الشريف وهي فلان الدين والعالم اولى من يتحفظ على نفسه من هذه الاشياء ويذب عن السنة فى حق نفسه وفى حق غيره .. »

ومن نتائج النقد اللغوي ما كتبه الاجدائي حول التوشيح والوشاحين معلقا على بيت ابن الزقاق المغربي :

على عاتقي من ساعديها حمائل
وفى خصرها من ساعدي وشاح

حيث استعمل هذا الوشاح فى معنى النطاق وهو ما تديره المرأة على خصرها والوشاح ما تتقلده على عاتقها فيكون منها فى موضع حمائل السيف من الرجل وقد خطيء ابو تمام فى قوله :

من الهيف لو ان الخلائل صورت
لها وشحا جالت عليه الخلاخل

لانه استعمل الوشاح فى العقاب وانما وصفوا الوشاح بالقلق والحركة لان ذلك يدل على رقة الخصر وضمور البطن ..

وقد ظل اقطاب الفكر ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الاجازات كما كان المشارقة يتوقون الى مبادلة علمائنا وجوه النظر وقد عرف الشرق كيف يقدر المغرب فى شخص افذاذه امثال ابن سليمان الروداني والمقري وابن الطيب الشرقي ويحيى الشاوي واليوسي واحمد بن ناصر واحمد القادري ومحمد (فتحا) الفاسي ومحمد بن الطيب العلمي المتوفى بالقاهرة واحمد بن الخياط الذى مكث طويلا فى القاهرة ايضا واحمد الهلالي الذى ترك لنا وصفا شيقا لرحلته العلمية هذه . لان اساليب الشرق والغرب كانت تتكامل كما ان عناصرها الحيوية يتمم بعضها بعضا فى هيكل موحد رصين . ولعل ما لاحظه المقري وقبله ابن خلدون من فروق بين الشرق والغرب فى الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية قد ظل على ما كان عليه اذ بينما كان الشرق مطبوعا بالعمق فى ملكة العلوم النظرية طفق المغرب يوغل فى البحث اللفظي مع تحقيق ما احتوت عليه بواطن الابواب وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما فى الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات مع ما انضاف الى ذلك من تتبع الآثار وبينما غلب على تآليف المشارقة الايجاز (هذا البعض كالغزالي والفخر الرازي) مع انحصار فى الموضوع سواء فى التصنيف ام التدريس اذا بالمغاربة من القيروان الى القرويين يوغلون فى الاستطراد . واذا كانت صناعة التاليف قد انتهت في علماء المغرب على صناعة اهل المشرق فى شخص ابن ابناء المراكشي فقد عللوا ذلك (ببراءة نسبه من البداوة) غير أن الامر لم يبلغ الحد الذى زعمه ابن خلدون فى المائة الثامنة من انقطاع ملكة التعليم على طريق النظار لان التحقيق العلمي ظل طابع الكثير من علماء عهد الشرفاء هذا مع تحفظات منها نوع من التجمد فى المنهج وايغال فى استظهار النصوص حيث ادى الحال فى بعض نواحي المغرب كسوس الى تطرف فى الاستظهار تجاوز المتون الى معجم اللغة ولكن هذا الاسلوب الذى كان يحجر الفكر احيانا عند من لا يستطيع ان ينسق بين واعيته وملكته التصورية قد ضخم على العكس عند البعض السليقة العربية ولا ادل على ذلك من وفرة امداد الادباء والشعراء فى سوس حيث لا يزال التحقيق اللغوي خاصة بارزة ولا يعزب عنا ان ابن القزاز البربري هو الذى صحت عليه اللغة بالاندلس بعد ابي علي البغدادي وان اهل شنقيط اقرب الى الفصحى من باقي عناصر الشعوب العربية بفضل تلك الروح الاستظهارية البسيطة .

واذا اردنا ان ندرك نوع المعارف التى كانت سائدة فى ذلك العصر والتى احتكرت نشاط رجال الفكر فما علينا الا ان نستعرض زمرة ممن شملهم العهدان العربيان امثال البوسعيدي والافلالي والتمنارتي ومبارة والمرغيشي واليوسي والعياشي

وآل الفاسي والغساني والحلبي وابن زاكور واحمد ابن ناصر وغيرهم فستتضح لنا خطوط ذلك الاطار الذى انحصر فيه النشاط الفكري .

فمن عالم يكدح فى خمول موزعا يومه بين التدريس والعبادة الى مصنف لا يعدو شرح النصوص الفقهية او جمع تراجم الصوفية او وضع لوائح مطولة عن شيوخه واجازاته الى فقيه انصرف للقضاء او الفتيا فاحتكره حديث النوازل والاقضية والخصام والشجار .

ولكنك تجد ازاء هذا النزوع الفقهي والوجهة الصوفية اتجاهات من نوع جديد تضفي على المجتمع الفكري الوانا طريفة فانك تعثر فى هذه الفترة على دواوين شعرية وتحريرات تاريخية الى جانب كتابات فى الحساب والفلك والطب فهذا عبد الرحمن التنارتي يتولى الفتيا والقضاء ويقرض الشعر العالي ويؤرخ لسوس العالمة فى فهرسته القيمة وهذا المرغيثي يدلي دلوه فى كثير من شعب المعرفة بعد ان اقام فى زاوية الدلاء محفل الآداب والعلوم فيكتب فى الرياضيات والهيئة ويجمع معلومات شيقة عن مجتمع عصره مازجا ذلك بفوائد مختلفة تتراوح بين التنزلات الروحانية والوصفات الطبية والشوارد الادبية وقد استقى الافراني مادة تاريخ المجتمع السعدي من امثال هذه المصنفات ، وهنالك نوع آخر من التصانيف يتجلى فى (الدر الثمين) لميارة حيث نجد الى جانب الذيول الفقهية والتعاليق الصوفية طرائف من الحركة الفكرية المعاصرة وبرحلة العياشي يظهر اسلوب جديد فى البحث يحاول ان يتجاوز النطاق المغربي المحدود الى ذلك الفضاء الواسع الذى يمتد الى الشرق الادنى حيث المناهج الدراسية تختلف نوعا ما عنها فى المغرب وحيث طرائق التصنيف ومواضيع التاليف تتسم بميزات من طراز جديد فنرى العياشي يحاول ان يدرس خصائص الشرق ليقارنها بالحالة المغربية مخللا ذلك بنظرات تاريخية وتلويحات صوفية واستطرادات ادبية فهو يحدثنا عن شراب البن فى الشرق مشيرا الى انعدامه اذ ذاك بالمغرب كما يصف لنا يوم المحمل بمصر ثم لا يلبث ان ينتقل الى الطرقية ومناكر المواسم معرجا على جزئيات كتطويل اللحية وحكمها وعدد العوالم ثم يدرج فوائد طريفة كاستيناس المصريات المترفات بشراء ريال من الازهار كل يوم ولا شك ان شيوع هذا النوع من التاليف فى الوسط المغربي يحدث اثره السريع .

وقد اغرق العلماء فى التصنيف حتى بلغت تآليف بعضهم المائة والسبعين وهذه الوفرة من ابرز مميزات العهد العلوي يضاف اليها التنوع حيث تجد الرجل الواحد يؤلف فى الطب والهيئة والفقه والتاريخ والتراجم والآداب ولكن اذا كانت بعض المصنفات صورة صادقة لذلك العصر كمحاضرات اليوسي فان الكثير يمتاز بموضوعية متطرفة لا تترك مجالا لانبثاق ذاتية المؤلف مما يفقدها الروح والمتعة فالمحاضرات تصور لك الحركة بكيفية تثير فى النفس حب التطلع وروح الانسياق مع المؤلف حتى ليخيل للقارىء انه يعيش فى ذلك العصر وهل هناك لوحة تاريخية ابلغ من تلك الصور المتتالية التى يرسمها اليوسي فيشخص فيها الادباء فى مساجلاتهم والصوفية فى حضراتهم والملبسين فى دعاويهم والعوام فى خرافاتهم وتشبه الرحلة اليوسية رحلة احمد ابن ناصر من حيث الافاضة فى الحديث عن الشرق .

ثم ينبثق القرن الثاني عشر فيتسع نطاق النشاط الفكري ويتضخم التنوع فيظهر امثال الزياني والوزير الغساني والشريف العلمي .

فالزياني مؤرخ دقيق الملاحظة يخطو باسلوب البحث والتحقيق خطوات ويوسع موضوعه فيكشف عن الحياة فى جزء من القارة الاوربية وينطبع اسلوبه التاريخي بمنزع جديد لانه يحاول مزج وصف الاحداث بنظرات عن نظام الحكم والحالة الفكرية. اما رحلة الغساني الى اسبانيا فانها وثيقة عرفت ادباء المغرب اذذاك باساليب الحياة فى بلدان مسيحية ووصفت المجتمعات الاوربية وحياة البلاطات والطبقات الارستقراطية الاسبانية ، وتجد الشريف العلمي يفرد ادباء وشعراء بتاليف خاص فيتجه بالتصنيف اتجاها فنيا يهدف الى النقد والتحليل والتنظير من خلال محاورات اجراها مع اثني عشر من معاصريه كالحلبي وابن زاكور ومسعود المريني والغزال والبوعصامي غير ان هذا (الانيس المطرب) جاء رغم ذلك موسوما بالطابع العام الذى كان يصطبغ به التصنيف فى القرن الثاني عشر وهو الانتشار وعدم التزام الموضوع وقد شبهه بعضهم من هذه الناحية بقلائد العقبان للفتح بن خاقان او المنتقى المقصور لابن القاضي . فنحن نجد الى جانب هذا البيت الذى هو من نظم المؤلف نفسه يخاطب به المولى اسماعيل :

امولاي امنت البلاد واهلها
فلله رب الناس ثم لك الشكر

قصيدة للحلبي مطلعها :

يا رب اني ضعيف هائني الوجل
ما حيلتي يوم هول العرض ما العمل

واخرى لابن زاكور (وحيد البلاغة وفريد الصياغة) صدرها بقوله :

اتق الله ما استطعت فان
الله ربي مع الذين اتقوه

هذا مع ان للحلبي مقامات عارض بها الحريري ولابن زاكور (عنوان النفاسة في شرح الحماسة) و (مقياس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد) والصنيع البديع وشرح المقصور والممدود وشرح لامية العرب والمعرب المبين وغير ذلك .

وهذه النزعة الصوفية نجدها عند معظم شعراء هذا العصر فالشاعر مسعود المريني (واعظ المدينة المرتدى بالوقار والسكينة) الذى له تآليف في التصوف وقصائد عارض بها ابن الوفا وطاول ابن الفارض يقول في مطلع قصيدته :

يا رب انك موجدي ومكوني
ومدبري ومصوري ومشكلي

وفي اخرى :

سهام الموت راشقة النبال
ونحن مع البطالة لا نبالي

ولكنه يقول ايضا :

طيف الخيال تعرضا
اخذ المقام واعرضا

واثار وجدا كان في
طي الاضالع اجهضا

ويقول في رسالة التزم فيها السين محتذيا بابن الخطيب :

سلام كنسمة مسك سرت
لانفاسكم بنسيم سحر

لساحتكم ساقه مستهام
سباه سنا حسنكم وسحر

ومن شعراء العصر ايضا محمد بن العربي الشرقي (شاعر الاوان الذى لم يشتمل على مثله ديوان) القائل في حقيقة الشاعر : (ان اسم الشاعر لا يطلق الا على من وقف في حرم المعاني بكل المشاعر اما من سلك طريقة واحدة فآراؤه فاسدة وبناؤه على غير قاعدة) ولعل هذا التعريف صورة للذلك العصر الذى كان شعراؤه يستوحون من ارواحهم المضطلعة باوار التقوى وفي ذلك الحوار الذى دار بين هؤلاء الشعراء وبين الشريف العلمي الوان شتى وضروب مختلفة للآداب والفنون التي كانت رائجة في ذلك العصر .

وبعدما يذكر العلمي شعراء معاصرين آخرين امثال احمد عمور نراه يعرج على كتاب العصر كالمهدي الغزال القائل في وصف راقصة :

قامت بكاس الروم راقصة
بين الغواني رقصها يطرب

كانها والكاس في يدها
بدر تبدى حوله كوكب

وفي وصف بستان :

انظر الى الروض وقد نثرت
عليه اوراق من الياسمين

يحكي بساطا ناعما صيغ من
زبرجد يعلوه در ثمين

ولكنه يقول ايضا متاثرا بنزعة العصر :

الموت لا شك آت
وكل آت قريب

فتب وتب قبل ان
يعتريك منه وثوب

ومنهم عمر الحراق القائل في ديوانه يفاخر بمسقط راسه شفشاون :

ما شعب بوان ما مرج دمشق وما
نيل بمصر وما العاصي لدا حلب

في جنب شفشاون الغراء ان فخرت
بتينها وبزيتون وبالعنب

ومنهم احمد دادوس (صاحب التماريض في الضروب والاعاريض) الذى رثى وغزل وجد ما شاء وهزل) والاديب البوعصامي (بليغ مصره وامام الادباء في مغربه ومصره رحل الى المشرق، وطلع عليه كالبدر المشرق) القائل :

محى بدمع كالعقيق محاجري
شوقا لطيبة والعقيق وحاجري

ولهذا الشاعر باع طويل في ترتيب النغمات الثمان التي عليها مدار الغناء والالحان.

ومنهم ايضا الشاعر عبد القادر بن شقرون القائل :

استقياني كؤوس بنت الدوالي
ان عراني السقام فهي الدوالي

الى ان قال :

كم ليال قطعتها في نعيم
حفظ الله عهد تلك الليالي

بين راح وشمعة ومغن
وظباء تنصتها باحتيال

ولكنه ينفعل (لنزعة العصر) فيقول :

رب يسر لعبدك الفتح واشرح
صدر من صدره من العلم خال

ومنهم الكاتب محمد بن سليمان (شاعر مطبوع .. واديب همام) القائل :

عذيري من هوى غصن رطيب
اراني البدر من فوق القضيب

مليح فاتر الالحاظ طفل
صبوت لحسنه بعد المشيب

ومنهم الحاج علي مندوصة الذى كلامه (يغار منه امرؤ القيس ويحن اليه جميل بثينة وقيس) القائل :

الى كم قدتك النفس ترمي فؤادنا
بسهم نضي اللحظ ارياشه هدب

الى ان قال :

فدونكم ربات قرط خريدة
مفوفة هيفاء هام بها الحب

مبرقعة لمياء غضة بضة
سوى انها عذراء ناهدة عرب

ومنهم محمد بن يعقوب (صاحب الابيات السهلة العبارة اللطيفة الاشارة) ومن تلك النماذج تدرك ان شعراء العصر العلوي الاول مراتب فهم بين فحل (يتصرف في فنون الكلام كثير الاغراب لا يعلم له مراد ولا يفهم من ابياته الا افراد) .

وهناك شعراء وكتاب آخرون لم يذكرهم الشريف العلمي في اثيه امثال عبد الواحد البوعناني مفتي فاس الذى هنأ المولى اسماعيل على تحرير العرائش بقوله :

الا ابشر فهذا الفتح نور
قد انتظمت بعزكم الامور

وقد وصف اشرلباب اعناق المدن المختلفة الى التحرر على يد السلطان فقال :

ووهران تنادي كل يوم
متى ياتي الامام متى يزور

وقال قبله :

اذا ما جاء سبتة في عشي
تناديه اذا كان البكور

ومنهم عبد السلام بن حمدون جسوس القائل :

رفعت منازل سبتة اقوالها
تشكو اليكم بالذي قد هالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا
وتنبهوا كي تسمعوا تسالها

فلقد قضيتم للعرائش حاجة
مع طنجة فاقضوا الذى آمالها
وارفع لهذا الغرب راسا انه
في الضعف ما دام العدا انزالها

وقال عبد السلام القادوري :

ملا عرش دين الله كل العرائش
وهد بنصر الله قصر العرائش

تلك الوان خاصة من الشعر الوطني الذى يحاول فيه الشاعر التعبير عن آلام الشعب وآماله .

وعندما قام المشائب ابو حفص لوقاش يدعي الملك قائلا :

انا عمر الموصوف بالباس والندى
انا عمر المذكور في ورد الجفر

اجابه ابن بجة الريفي بقصيدة منها :

في صفحة الدهر قد خطت لنا عبر
منها ادعاء الحمار انه بشر

وهذا لعمري ابدع فى فن الاقناع .

وفى هذا العصر كانت زاوية شرقاوة فى ناحية تادلا محفلا للآداب والفنون وقد خلفت زاوية الدلاء نشملت بعطفها كثيرا من الادباء الذين وجدوا فى ربعها المقام الرحب كالافراني الذى بدا حياته التصنيفية بشرح بديع لتوشيح ابن سهل الاندلسي وهو نموذج للنثر (الفني) فى ذلك العصر اما الزاوية الناصرية فقد احتفظت باشعاعها فى الجنوب وفى (الدرر المرصعة) لمحمد المكي الدرعي صور ناصعة لآثار هذه الزاوية فى العلم والآداب والكتاب ينطوي على معلومات ادبية قيمة وقصائد رائعة منها مقطوعات كلها تفجع على اهل الدلاء كقول العربي الفاسي:

ادار بذات السدر فى الجانب الشرقي
سقاك الحيا ما دام صوب الحيا يسقى

اما درعة فقد قيل فيها بين ما قيل :

المم بدرعة واختر للنزول بها
زاوية الفضل مأوى المجد والكرم

وهناك مقطوعات منها للهاشمي الشكلنطي الرباطي :

يا حاديا اسرع بذات الزمام
وارع رعاك الله حق الذمام

فانني امسيت ذا قلق
من شدة الشوق وفرط الغرام

وقال :

ورشا من آل يافث
لحظه بالسحر نافث

يخطا السين الى تاء
المثاني والمثالث

قلت جدلي بوصال
قال دع عنك الوثاوث

- وتذكرني هذه الابيات بالبيتين الذين ساقهما الجاحظ فى البيان والتبيين :

والشغ رايته
يفعل ما لا ينبغي

قلت له انت بري
قال بلى انا بغي

ويمكن القول بان تلك النهضة الادبية الرائعة التى عمت بلاد سوس فى العهد العلوي حتى تفتحت القرائح من بعض ما انتجه الفكر المغربي ـ انما يرجع فضلها للحركة الناصرية التى نشرت العلوم والفنون الى تخوم الصحراء .

وهذه العجالة تضيق عن استعراض النماذج المختلفة للحياة العقلية فى العصر العلوي ولعل فى كتاب (نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني) لمحمد القادري مادة وافية لمن اراد ان يقف على الوان الحركة الفكرية بالمغرب خلال قرنين .

وقد ضرب الملوك الادباء بسهم وافر فى هذه الحركة فحفظ السلطان محمد بن عبد الله الاغاني للاصفهاني مع صحاح الحديث وامهات الكتب تركيزا للملكة العلمية وكان فى ذلك بعث جديد للغة العربية واصولها وآدابها وفى هذا العصر ظهر محمد بن الطيب الفاسي استاذ الشيخ مرتضى الزبيدي المصري الذى الف اكبر موسوعة لغوية فى العصر الحديث هي تاج العروس فى شرح القاموس للفيروز ابادي (6) والذى كان يصحح من املاءاته معاجم اللغة كما فعل ابن القزاز البربري فى العصور الاولى .

اما القرن الثالث عشر فانه لا يكاد يختلف فى مجموعه عن سابقيه فقد امتدت الى اوائله حياة رجلين هما محمد التاودي ومحمد المنالي الزبادي اللذان مات كلاهما عام 1209 وكانا انموذجا جديدا لعلماء يحرصون على انتاج الشرق للتبحر فى علوم لم تكن منتشرة فى المغرب الا عند الخواص وقد كان العالمان رسولين من المغرب الى الشرق فى هذه الفترة للاقتباس من الفكر العربي هناك وخاصة فى القاهرة حيث تبلورت معطيات الحضارة الاسلامية فى الازهر الشريف ومن نبغ فى هذا القرن من رجال الفكر ابن عجيبة الذي تحتوي فهرسته على معلومات

(6) قال الزبيدي فى شيخه هذا: ورايت شرح شيخنا الامام اللغوي ابى عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي المتولد بفاس سنة 1110 والمتوفى بالمدينة المنورة سنة 1170 وهو عمدتي فى هذا الفن والمقلد جيدي بحلى تقريره المستحسن (التاج ـ المطبعة الخيرية ـ مصر 1306 هـ ص 3)

حول الحالة الفكرية في تطوان وسليمان الحوات الذي جمع في البدور الضاوية اجازات الدلائيين ومراسلاتهم ومقتطفات من اشعارهم والشيخ حمدون ابن الحاج الذي ترك لنا ديوانا حافلا بمدائح المولى سليمان الذي حركت مآثره المشاعر حتى قال محمد ابن ادريس الفاسي :

بسليمان قد سلمنا وسرنا
فالعلى منزل له والعلاء

كفه كفت الفساد وكفت
كل هاد فما لكم اكفاء

وبلغ صدى المفاخر السليمانية تونس الشقيقة فتحركت شاعرية فحلها الهمام ابراهيم الرياحي الذي نظم قصيدته الخريدة التي مطلعها :

ان عز من خير الانام مزار
فلنا بزورة نجله استبشار

ومنها :

هذا الذي رد الخلافة غضة
وسما به للمسلمين منار

ومن شعر ابن ادريس يستنفر الشعب لحرب اسفي مشيرا الى زحف الصليبية من الشرق ضد الاسلام :

يا اهل مغربنا حق النفير لكم
الى الجهاد فما في الحق من غلط

فالشرك من جنبات الشرق جاوركم
من بعد ما سام اهل الدين بالشطط

فوائح المكر تبدو من خوانمه
فمنده المكر والمكروه في نمط

من جاور الشر لا يعدم بوائقه
كيف الحياة مع الحيات في سفط

وقد تعزز النشر بالمطبعة الحجرية التي اسست بفاس في منتصف القرن الماضي فصدرت عشرات المصنفات القيمة التي زخرت بها مكاتب المخطوطات. وقد اتصل حبل الادب على الطريقة التقليدية في النصف الاول لهذا القرن كما تواصلت حلقات التصنيف في نطاق محدود على غرار القرون السالفة مع ايغال في الاقتصار على الجمع والتنسيق بكيفية تجرد عالم التاليف من كل روح .

ومن الصعب التمييز استنادا الى منهجية التعبير وحده بين مصنفات يتارجح انتماؤها بين قرون ذلك ان اسلوب الادباء واللغويين ظل في كلاسيكيته المتحجرة في منأى عن الاهتزاز للكثير من النبرات الجديدة المتفاعلة مع لوازم البعث الحضاري المتجدد واذا كانت اللغة كائنا حيا يتدرج في مراحل النمو بين الطفولة والهرم ثم الانبعاث في طفرات جديدة فان اللغة العربية بالمغرب الاقصى خاصة قد احتفظت بطابع اصيل خلال خضم الاحداث السياسية والحضارية واذا كان هنالك عامل منطقي لتعليل هذا التحجر فهو ان الكثير من ادبائنا ولغويينا ظلوا عالقين بابراج عاجية في حين ان لهجة التخاطب كانت قد درجت في المجاري الحية الفياضة وبذلك اتسعت الهوة بين الفصحى والعامية بتسرب الدخيل الاجنبي وقد تجلت روح التجديد عند ادباء او في مراسيم ومراسلات رسمية فظهرت بدلا من مصطلحات معربة في قالب رصين الفاظ عامية على حساب اللغة الاصيلة الفاظ عامية تكثر وتقل تبعا للحاجة الملحة في ضبط الوقائع وتدقيق الماجريات وان كانت خطابات ووثائق سياسية اخرى احتفظت باسلوبها الكلاسيكي الرنان على حساب الدقة والوضوح .

اما في صحراء شنقيط فقد نشر الشيخ احمد ابن الامين الشنقيطي نزيل القاهرة مصنفه القيم « الوسيط في تراجم ادباء شنقيط » منذ عام 1329 هـ ـ 1911 م في الوقت الذي انبثقت الثورة من اقصى الجنوب بزعامة ما «العينين لتحرير المغرب من الزحف الصليبي فاتحفنا بصور رائعة عن فنون من الشعر الرفيع ابدعته قرائح الصحراويين المغاربة في قلب الفيافي القاحلة مجددين بذلك عهد الجاهلية الاولى في نصاعة الاسلوب وجزالة اللفظ ورقة المعنى وفخامة المبنى وكانت ضروب القول لا تتعدى الاطار التقليدي من مفاخرة ومهاجاة ومديح وغزل وتشبيب وقد برز عشرات من الشعراء والناثرين خلدوا اللغة في اصالتها وروعتها الاولى .

فمن شعر ابد' محمد بن محمود يصف مرافق الصحراء :

حملنا الخيام وانضادها
وسرنا جميعا لقالا بطا

فجر العجاف رويدا لئلا
تخب فتبهر او تلغطا

ومن الازجال العامية التي اصبحت تسير مسرى الامثال عند الجماهير قصائد « الملحون » للفقيه الشاعر الهادي بن محمد (المتوفى عام 1319 هـ) .

مدمن عيلال
محدود افلميال
افكل انوال
اسر من حنش (7)

ومنها يذم قبيلة باسلوب عربي لاذع :

ما فم المغفير
وبلا خيم اكبير (8)

اما الصحافة فقد ظهرت في المغرب منذ ازيد من مائة واربعين سنة ولكن بلغات اجنبية خاصة في سبتة وطنجة الى عام 1868 حيث برزت جريدة اسبوعية بثلاث لغات (العربية والفرنسية والاسبانية) تحلل احداث العالم وماجريات المغرب ، وفي عام 1889 صدرت اول جريدة عربية اسمها « المغرب » وتنافست المفوضيات الاجنبية فصارت كل واحدة منها تصدر صحيفة باللغتين الاصيلة والعربية لمهاجمة الحكومة المغربية تمهيدا للحماية .

ولم تكن تصل الينا آنذاك سوى جريدة « الاهرام » المصرية التي كان المغاربة يتهافتون على قراءة الاعداد القليلة الواردة منها ثم توالت الصحف العربية في اوائل القرن العشرين فظهرت «الفجر» و «لسان المغرب» و «السعادة». وانصرف الفكر المغربي طوال ثلاثين سنة لتعزيز المقاومة المسلحة فلم تظهر اول دورية وطنية الا عام 1932 وهي مجلة «مغرب» التي ما لبثت ان تمزقت بصحف اخرى مثل مجلتي(السلام)(والمغرب الجديد)وجريد(الحياة)تعقدها في المساجد محاضرات تكونت في حلقاتها نخبة واعية شكلت الاطر الوطنية الاولى للخلايا التي انبثت في البلاد تركز لغة القرآن وتقرأ بتلهف ما يتسرب خفية الى المغرب ضمن الحركة الشرقية للتأليف والنشر من الصحف والمجلات (9) وبدات روح جديدة تتفتق في اسلوب حماسي رائع يستمد اواره من النهضة القومية بالجناح الشرقي للعروبة وخاصة بمصر والشام فظهر شعراء لمع نجمهم وبدا الشعر يعني بالقضايا الاجتماعية والسياسية في الوطن العربي ويتخلص تدريجيا من وطاة المفاهيم الكلاسيكية حول الغزل والتشبيب والمدح والهجاء متفتحا لمعطيات طريفة اكثر صلة بمستحدثات العصر ومتطلبات التطور ومع ذلك فان هذه الفترة لم تكن خالية من تخضرم كمرحلة انتقال بين عهد برز فيه جيل ما قبل الحماية وجيل التوثب الجديد الذي اشاد به الاستاذ علال الفاسي في مخطوط حياة « وادي الجواهر » فمنهم محمد فريط صاحب « فواصل الجمان » حيث ترجم لازيد من ثلاثين من « وزراء وكتاب الزمان » كان ينظر الى قيمتهم الادبية بمقياس جديد فقد تحدث عن اديب « استكتب في وزارة الخارجية الى ان شالت نعامته ووسدت في التراب هامته في عام نيف وعشرة وثلاثمائة والف » ثم حاول تعريف قطاع وزاري جديد في اسلوب قانوني ينم عن اهتمامات العصر في الحقلين الدبلوماسي والسياسي حيث قال : « وزارة الخارجية عبارة عن الاستقلال بمباشرة دعاوي اهل الحماية وتنفيذ ما تعلق بها من عزل او ولاية والوساطة بين السلطان وبين سفراء الدول وكبرائها وكتابة الرسائل لملوكها ووزرائها » . ومن نظمه الرائق نشيد مدرسي نحا فيه منحى طريفا بين التوشيح والتخميس في دمان جديدة .

قال :

يا بني الدهر اجيبوا
داعي النصح النير

---

(7) مد اي ماذا وعلال من العل يعني الذي يحلب نوق الناس بعد ان تذهب للري من عند اهلها وهو عندهم وصف في غاية الذم ومعدود افلميال اي معدود في العيال اي عالة على الناس والانوال بيوت من الشعر واسر من حنش اي اكثر من الحنش سري .

(8) فم اي اصله ثم وهي لغة والتمغفير التخلق كالتمعدد اي التشبه بمعد بن عدنان) باخلاق بني مغفر ومغفر قبيلة بناحية فاس والخيم هو حسن السجية وهو الخلق كما عند ابن سيده في المحكم (فارسي معرب) ومعنى البيت ان هؤلاء القوم مجردون من كل الاخلاق المغفرية ومن السجايا الحسنة .

(9) واهمها مجلة « المنار » للشيخ رشيد رضى التي كانت قليلة حتى اضطر بعض رجال الفكر من المغرب الى التوجه للجزائر للاطلاع عليها .

واستجدوا ذكر قطر
كان ذا صيت شهير
جددوا للغرب مجدا
واركبوا كدا وجدا
واقدحوا للعلم زندا
والبسوا للحزم بردا
وابتغوا هديا ورشدا
تسمعوا شكرا وحمدا

وتروا رعيا جميلا
من ذوي القدر الخطير

ومنهم احمد البلغيثي الذى يعتبر انموذجا للعالم المبرز والفقيه الضليع والمفتي البارع الذى يحقق قضايا القانون فى مصطلح دقيق يستجلي بواطن المعضل الى جانب شاعرية فياضة جمعت بين الصفاء والجزالة . ومن نظمه :

بدت لي ترنو بالعيون الفواتر
ولكن لها فى القلب وقع البواتر

بدت لي وفى قلبي المنى بحبها
لواعج اشواق كحر الهواجر

اما عبد الله الفاسي نائب السلطان مولاي حفيظ بطنجة وسيره بباريس فهو خطيب واعظ وناقد قانوني ، ومن شعره :

ليس التمدن ما يلهيك من عمل
يرقي البلاد ويعلي الفكر والنظرا

ليس التمدن فى عيب الذين مضوا
بل التمدن فى اجلال من غبرا

وقال فى قصيدة اخرى يصف بعض ما ظهر آنذاك من طائرات وسيارات وقطارات وبواخر وغواصات :

هذي المناطد فوق الجو تنشدنا
هذي المآثر والآثار فى الدول

هذي المراكب تطوي الارض تتحفنا
قرب المزار ويمن السير والنقل

هذا القطار يخد الارض ممتطيا
متن البسيطة فى سهل وفى جبل

هذي البواخر فى عمق البحار وفى
اعلاه تفعل فعل الفارس البطل

هذا التمدن هذا الفضل فاعن به
ليس التمدن بالالحان والغزل

ومن بين من برز من الشعراء فى هذه الفترة :

محمد السليماني الذى تمخضت رحلته الى الشرق العربي الناهض عن ثورة فى احساسه ومنهجيته ومن نفثاته التى يواكب فيها شاعر الكنانة حافظ ابراهيم قوله :

ولست الى النسيب اهش كلا
فان وراءه لمع السراب

ولا وصف المجالس يزدهيني
ولا جس المثاني والرباب

اليست امتي فقدت حجاها
وهذا عزها وشك الذهاب

وهذا صبحها يحكي مساء
لفرقتها توارت بالحجاب

وقد وصف فى دقة وروعة جانبا من المآسي الاجتماعية والاقتصادية التى توالت على المغرب المحتل مشيرا الى تكبة العربية وتقلص ظلها وسياسة التفقير والتجهيل التي نهجها الاستعمار :

رضينا العي حتى لا فصيح
اذا ما قال سرك فى الجواب

ولا احد من اهل العلم منا
يقيم لسانه عند الخطاب

مصانعنا الم بها فساد
فاصبحت الصنائع فى اضطراب

وساد على تجارتنا كساد
فراس المال منخرم الحساب

وزاحم فى فلاحتنا اناس
جنوا من ريعها عجب العجاب

ونحن ازاءهم فقراء نلقي
بانفسنا باحضان المرابي (10)

(10) راجع «الادب العربي فى المغرب الاقصى» لصديقنا الاستاذ محمد بن العباس القباج

وقد كانت الدعوة الى التجديد فى نطاق الروح الاسلامية هي شعار العصر يتردد فى كل قصيد فمن ذلك ما قاله السليماني :

فكل زمان لـه حلة
فالـق دلاءك بهن الكرام

وعبد الله الفاسي :

والبس لكل زمان حل حلته
فالشهم من يعرف الإدوار والعصرا

وقد اتجه القريض خاصة لوصف مظاهر حضارية مستحدثة كمناظرة الشاعر محمد بوعشرين بين الكهرباء والماء حيث يقول :

قد سبح الماء فى انبوبه سحرا
فقطب الضوء كالمزور من غضب

الكهرباء اراها قوة جبلت
على الحرائق والاسراف والعطب

ضوء الزيوت وضوء الشمع قد محيا
من آية الليل اذ انسرقت من حجبي

الى ان شبه هذه المناظرة الطويلة برواية شخصت ادوارها فى اسلوب جذاب واستعمل فيها تعابير طريفة حيث قال :

تلك الرواية من تعبير نادرة
تشخيص ادوارها من ابدع الخطب

وقد ردد المغرب فى تلهف وحنان اصداء الشرق المتنائي الذى حالت دونه حجب وعوائق مترسما خطاه فى كل شاذ وفاذ فقد عبر محمد ابن اليمني الناصري عن حرقة الادباء فى فجيعتهم بالمنفلوطي حيث قال مشيرا الى فن الفقيد والوان بديعه :

ما للمعارف ترسل «النظرات»
نحو الثرى وتسلسل «العبرات»

فالمغرب الاقصى يعزي مصر فى
ذاك الابي مذلل العقبات

يا مصطفى وليت منا لابسا
حلل الثناء موفق الخطوات

قد كنت فينا مرشدا ومهذبا
ومشذبا بالخير خير نبات

* * *

وظفر المغرب طفرته الرائعة برعامة الاستاذ علال الفاسي ورفاقه الاحرار عام 1933 عند مطالبة الشعب بتخليد الذكرى السنوية للعرش المغربي كعنوان للوطنية الصادقة التى اظهرها جلالة المرحوم محمد الخامس وقدمت الكتلة الوطنية فى العالم التالي برنامجا مركزا للاصلاح برهن بالاضافة الى روحه التحررية عن الخطوة الجريئة التى قطعتها اللغة العربية فى فترة وجيزة اصبحت خلالها قالبا حيا لمفاهيم جديدة ومصطلحات طريفة رددها الشعب فى شعاراته مثل الغاء الحكم المباشر وفصل السلطة وتشكيل مجالس وطنية منتخبة واقرار الحريات العامة وحق الاضراب وتوحيد التعليم وضمان الملك العائلي وتوسيع القرض الفلاحي ومحاربة سياسة الادماج وتكوين الاحزاب وفتح المجال للبعثات العلمية الى الشرق العربي وحماية الصناعة الوطنية وضمانة السكن الصالح للجميع وتعززت هذه المطالب بحركة « تضامن » بين تونس والجزائر والمغرب وانعقدت «مائدة مستديرة» بين الكتلة الوطنية وادارة الحماية وصدرت صحف عربية جديدة ك « الاطلس » . فتطلع المغرب بفضل هذه الانتفاضات خلال نصف قرن ما لم يقطعه فى آماد عريضة حيث تقاربت الاحاسيس وتجاوبت العواطف بين الشعوب العربية واتحدت مجالي التعبير بعربية حية تساوقت مصطلحاتها وتجانست مفرداتها فى الصحافة والاذاعة فى عواصم الشرق والغرب العربيين وانبثقت الى جانب هذه الثورة الفكرية نهضة علمية انعكست صورها على مجلات ودوريات مثل « رسالة المغرب » التى اصبح عنوانها رمزا لمدرسة القاهرة الناهضة فى شخص « رسالة الحسن الزيات » ورفاقه من الاخصائيين العرب الذين بذروا فى روعنا الايمان بقدسية العربية كلغة للعلم والحضارة فى العصر الحديث فكان للمفاهيم الجديدة وتعابيرها الطريفة صدى عميق فى نفوس نخبة حية من المثقفين المغاربة ما بين مزدوجي الثقافة وموحديها . ولاعطاء صورة عن « رسالة المغرب » التى تبلور فيها الانتاج الفكري الرصين فى المغرب قبل منتصف القرن الحالي ناخذ العدد الاول (11) من السلسلة الاسبوعية

(11) ونلاحظ ايضا فى هذا العدد فراغا ابيض هو عبارة عن جزء مقال قصته رقابة الحماية لانطوائه على عنصر لم يرقها وكثيرا ما كانت المجلات والصحف الوطنية تصدر بيضاء :

الجديدة (العام 1368–1949) حيث نستشف من عناوين الابحاث والدراسات الوجهة الجديدة في الادب والثقافة في المغرب الناهض فهنالك دراسات حول الانانية ومعجزة الاسلام المعاصرة وزهراء مجدولين او تنازع العوامل العبقرية شذوذ والتثقيف الذاتي ورثاء شاعر مصر علي الجارم وقصيدة للشاعر المرحوم عبد الكريم بن ثابت الذي قضى شطرا من حياته في مصر

« وجهك الباسم » وهي من بواكير الشعر المنشور جاء فيها :

وجهك الباسم لي نعمى وروح وهناء
ورجاء لفؤادي كلما مر الرجاء

وشفاء لجراحاتي وسلوى وعزاء
ونعيم ذكرتني نفحة منه الخلود

حين كنا نجهل الدنيا وآلام الوجود
نملأ الفرحة روحينا وتبدي وتعيد

وكلانا يا حبيبي مثل انفاس الصباح
مثل همس السحر النائم في ضوء القمر

يتغنى بالاندية

ونقرأ في الفهرس العام لسنة 1950 فيفاء من الدراسات يعطي مجرد عنوانها لمحة عن اتجاه المصطلح العربي في المغرب منها : الشعور والانفعال – عصامية الادب – صلاتنا الثقافية مع مصر – الفكر الاجتماعي والفكر النقابي ورسالة الشعر وارادة الشعوب وكياننا الروحي ودفاع عن اللغة العربية والتراث الثقافي والعلم والشاعرية وثقافة هذا الجيل ومركب الكمال وشرقية الحضارة المغربية الخ ..

ونستشف من خلال نماذج شعرية اتجاه الفكر المغربي الحديث ، وللاستاذ الكبير علال الفاسي :

مضى الشطر من عمري وانى دائما
حليف هوى مغر وخدن اذى معدي

واطمح للروحي كبلسم جرحها
فتابى سوى صدي وتابى سوى ردي

واطلب عقلي منجدا في كفاحها
ولكنها تطغى على العقل في الحد

تجاذبني اهواءها وتعد لي
ظلالا من الالوان لامعة المد

وتحت عنوان «رؤيا» قال الشاعر الاستاذ محمد الحلوي :

اي دنيا انت يا دنيا الرؤى
يا ملاذ الروح يا نبع النبي !

سبحة من سبحات الروح في
افقك السحري عمر ذهبي

ونسيم عطر منسكب
منك في قلب وجيع متعب

نسمة تخلق من آلامه
عبقريا مبدعا للعجب

في مجاليك استقيت الفن من
نبعه الفياض صافي المشرب

وتلقى قلبي اللحن الذي
يتلقى مثله كل نبي

سال في روحي شعاعا حالما
غاب في قلبي وروى ادبي

ومن شعر الاستاذ عبد المجيد بن جلون خريج « جامعة القاهرة » :

يا نديمي اسق نديمك
زده نعمى وحبورا
زده صفوا وسرورا
وخيالا وشعورا

يا نديمي اسق نديمك

فالا الاكوان خمرا
يندلع منها الشعور

ثم قل كون كبير
او فقل كون صغير

اوليس الكون سرا ؟

الليالي والعصور
في محيط تتقلب

انها حمقاء تصخب
والزمان الغفل يلهب

ظهرها وهي تدور

ومن شعر الاستاذ عبد الله ابراهيم رئيس الحكومة سابقا :

سر كرعش الكهرباء
اشتمله السنة القضاء

فانا هنا قـوى اندفـاع
ليـس يحكمهـا ذكـاء
فسل النجوم لو النجـوم
تجيب في لغة الضيـاء
وسل الصخور الجامدات
بـدون يـاس او رجـاء

وسل العباب الضخم يزحف في انخفاض وامتلاء
وسل الرياح الهوج تبدو بيـن عنـف والتـواء
يا ليت شعري ما القضاء وكيف انشاني القضاء ؟
امصير اتعاب الشعوب وما بنتـه الى الفنـاء ؟

ومن شعر ادريس حسن العلمي من قصيـدة طويلة بعنوان « الصفاء » :

لدى منبع النور مهد السنـاء
زها الفجر رونقـه والسمـاء
وفي صفحة النهـر ناعمـة
يلمس النسيم ورقص الضيـاء
وبيـن الخمائـل اطيارهـا
تطربهـا بلديـد الغنـاء
وعند المروج وعطر الزهـور
وعند الهضاب وسحر المـاء

نشدت لروحي الرضى والصفاء

ومن شعري النادر في صباي :

النور بـدد مـا اعتكـر
لمـا بـدا ضـوء القمـر
والارض فـي جنباتهـا
عرف الربيـع قـد انتشر
وانساح في الروض المنمنم
خـده مـوج البشـر
متنافـرا متزاوجـا
مستمرئـا حلـو السمـر
فالجـو يغشـاه السنـاء
ببرقـة تجلـو النظـر
والقلـب يخفـق نشـوة
فيشـع بالزهـو البصـر
والنفس نبـع فيضهـا
فتزاحمت فيهـا الفكـر
والطيـر يشـدو زاهيـا
من فوق افنان الشجـر
نبراتـه رقـراقـة
مثـل الـزلال بلا وتـر
وجـداول فـوارة
يطفـو بصفحتهـا الـزهـر
والـورد بلـل خـده
قطـرات انـداء السحـر
في مثل حبات الجليد البيض
او سقـط الـدرر

تلك نماذج من نتاج الفكر المغربـي في مختلـف العصور وخاصة في الحقبة الحديثة تعطينا صورة عن تطور الفكر في الوانه الطريفة وانعكاساته التي تشرق وتخفت على التعبير اللغوي الذي واكب رغم تنائـي الديار تطور الفكر العربي ضمن الوحدة الكبرى .

المؤثرات الدينية

كان تعليم القرءان والفقه هو الانطلاقة الاولى لتعريب الجهاز الديني في المغرب الاقصى حيث اناط طارق بن زياد بسبعة وعشرين من العرب رسالـة تلقين مباديء الشريعة الاسلامية الى الجيش البربري ثم عمر بن عبد العزيـز على راس المائة الثانيـة وما لبثت الدعـوة ان تقلصـت بسبب الاضطرابـات السياسية بين الامويين والعباسيين فظهرت في الميدان فرق الخوارج التي نقلت ءاراءها التحريرية معززة بالقرءان والحديث ولعل انتشار الفكر القرءاني في الوسط البربري هو الذي حدا مؤسس النحلـة البرغواطية الى وضع قرءان بالبربريـة في ثمانيـن سورة اطلق عليها اسماء للانبيـاء كآدم ونـوح او حيوانات كالجمل والديك والحجـل والجـراد او الفاظ اخرى مقتبسة من القرءان كهاروت وماروت وابليس والحشر وقد توثقـت الصلة بيـن المغـرب والشرق منذ عصر التابعين حيث ارتحل العالـم سمكو ابن واسول والد امير سجلماسة المدراري الى المدينة لاخذ العلم وربما العقيـدة الخارجيـة عـن عكرمة (1) مولى ابن عباس تعززت دولـة الشعريـة الخارجية في الصحراء المغربية الى منتصف القـرن الرابع حيث استحالت في عهد الناصر لدين الله الى امارة سنية تخضع للمذهب المالكي الذي انتشر في مجموع اصقاع المغرب اذا استثنينا فلولا معدودة من الفرق ظلت تنافس الخـوارج كالشيـعة الموسويـن

(1) ذكر ابن خلكان ان عكرمة كان بربريا يرى راي للخـوارج .

باغمات والروافض بالاطلس الكبير (2) والبجليين (3) بسوس وقد استاصل المرابطون في صراعهم ضد البرغواطيين شافة هذه الطوائف التي اسهمت نحوا من ثلاثة قرون في نشر العربية ضمن دعاويها العقائدية .

وكانت فاس ملتقى لشتى المذاهب السنية فقد عرفت مذهب الاوزاعي ومذهب ابي حنيفة قبل ان يستقر فيها مذهب امام دار الهجرة وكان الاوزاعي امام اهل زمانه ـ كما يقول مالك ـ انتشر مذهبه في الشام نحو مائتي سنة (4) وكذلك في الاندلس قبل الامويين (5) اما ابو حنيفة فقد ظهرت نظرياته بافريقية الى آخر القرن الرابع ومنها دخل الى الاندلس وفاس حيث لم يحتد الصراع بين المذاهب لانصراف المغاربة الى المذهب المالكي على ان الامام ابا جيدة الفاسي قد حمل معه من الشرق وثائق شافعية (6) بالاضافة الى تضلعه في التفاريع المالكية بينما لم يقدر ذلك للمذهب الحنبلي بالرغم مما اشيع من دخول احمد بن حنبل نفسه الى المغرب (7) وكذلك للمذهب الظاهري الذي ترعمه ابن حزم بالاندلس في القرن الخامس (8) . اما مذهب الامام مالك فان منطقة نفوذه تجاوزت البصرة والحجاز الى الاندلس والجزر المتوسطية كصقلية وافريقيا حيث امتدت من مصر الى تونس والسودان والمغرب الاقصى (9) واذا كان هذا المذهب قد تعزز بالاندلس بفضل يحيى بن يحيى الليثي الذي كان مكينا عند الامويين وفي افريقية بفضل سحنون صاحب المدونة (10) فانه تركز عندنا لاسباب شتى منها ان الادارسة ساندوه لمساندة مالك بيعة العلويين وتقديس البربر لمدينة الرسول عليه السلام ولعاداتها التي اعتبر مالك العمل بها دعامة لمذهبه مع اقرار المصالح المرسلة وتحكيم الاعراف التي لا تصطدم مع روح الشريعة وابى المولى ادريس الا ان يسند القضاء لتلميذ مالك وسفيان الثوري محمد بن سعيد القيسي(11) وقد نشات جامعة القرويين عام 245 هـ في احضان هذا المذهب كجامع تركزت فيه دراسة علوم الدين وعلوم الآلة مثل سائر المساجد التي تعتبر معبدا ومعهدا يأوي اليها الغريب ويجتمع في حلقاتها طلبة العلم ولكن هذا الجامع ما لبث ان اصبح في القرن الرابع مهبطا لرواد الفكر يتقاطرون على عاصمة استوطنها قرطبيون وقيروانيون من رجال

---

(2) حسب ابن حوقل وهم اتباع موسى الكاظم لدى اخذ له والده جعفر الصادق البيعة بعد وفاة ابنه اسماعيل (الامام السابع للاسماعيلية) وقد رفضت البيعة لموسى فعرفت بالرافضة التي وجدت بالاطلس الكبير حسب البكري .

(3) اتباع علي بن عبد الله البجلي بماسة وتارودانت .

(4) خطط الشام لمحمد كرد علي .

(5) مدارك القاضي عياض (ج 1 ص 66) الى ان رحل الى مالك قرعوس وشبطون زياد بن عبد الرحمن الذي أدخل الموطأ الى الاندلس وغيرهما فالزم هشام بن عبد الرحمن الاموي الناس بمذهب مالك حوالي 170 هـ اي في حياة مالك حيث كان شيخ المفتين صعصعة بن سلام تلميذ الاوزاعي وامام مذهبه قد ادخل كتب الحديث الى الاندلس (جذوة المقتبس للحميدي طبعة 1952 ص 227) وقد لاحظ محمد كرد علي (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد 20 ص 321) ان بعض المذاهب كمذهب الاوزاعي لم تكن تقل عن غيرها شانا غير ان الملوك لم يعضدوها ولم يهم بها الخاصة والعامة وللاوزاعي كتاب رد فيه على ابي حنيفة في خمس وثلاثين مسالة حربية اي من القانون الدولي العام وانتصر الشافعي في كتابه الام (ج 7) لاكثرها .

(6) توفي ابو جيدة حوالي 360 هـ (سلوة الانفاس لابن جعفر الكتاني ج 3 ص 93 طبعة فاس الحجرية)

(7) كما ورد ذلك في الاعلام للزركلي (ج 1 ص 192) وفي شعراء بغداد للخاقاني (ج 1 ص 386) ومجلة اللسان العربي (عدد 3 عام 1965) .

(8) لاحظ احمد امين (ظهور الاسلام ج 2 ص 7) ان الاجتهاد انحصر منذ القرن الرابع في اربعة مذاهب وابطل كما قيل نحو خمسمائة مذهب.

(9) الديباج المذهب في علماء المذهب لابن فرحون المطبعة الحجرية بفاس ص 17) .

(10) (جذوة المقتبس ص 360).

(11) الجذوة ص 13

الفقه والسنة وكان جامع الازهر(12)يؤدي نفس الرسالة في الجانب الشرقي لافريقيا الشمالية بينما ظلت جامعة الزيتونة بتونس العاصمة تتنافس مع القيروان ثم مع بجاية في القرن السابع وقد ظهرت في بادية الجنوب اول مدرسة عرفها المغرب كدار للمرابطين يلقن فيها القرءان ومباديء العلم اسسها وجاج بن زلو اللمطي تلميذ ابي عمران الفاسي الذي كان انتمى به المطاف في تجواله لانتجاع العلم والمعرفة الى حاضرة افريقية حيث برز امثال اسد بن الفرات وسحنون وابن ابي زيد القيرواني والقابسي من رجالات الفقه والاصول وكانت قراءة حمزة هي الشائعة بين القراءات القرءانية السبع الى ان اختار المغرب كالقيروان قراءة نافع منذ صدر المائة الرابعة لتبسيط تلقين القرءان في الكتاتيب التي كانت مجرد جناح في المسجد (ولذلك تسمى المسيد وهي تحريف مسجد) وكانت للعوامل السياسية يد قوية في الاختيارات العقائدية اذ ما كادت مثلا مخطوطات « احياء علوم الدين » للغزالي تنتشر بالمغرب حتى انبرى خصوم المهدي بن تومرت من المرابطين يدعون الى تحريقها لما شاع آنذاك من اتصال الرجلين(13)وكان لتسرب المفاهيم والتعابير الفلسفية الغزالية اثرها في اوساط الفقهاء الذين ما لبث المهدي بن تومرت ان حملهم على عقيدة الاشعري السلفية من تاويل متشابه القرءان والحديث استنادا الى ضروب المجازات مما يتلاءم وروح الشرع ويعضده العقل والطبع وحظر المنصور الموحدي التقليد في الفروع وحمل الناس على الرجوع للاصلين على طريقة الاجتهاد المطلق واحرق كتب المذهب المالكي بعد تجريدها من الحديث والقرآن كمدونة سحنون (14) وكتاب ابن يونس ونوادر ابن ابي زيد ومختصره وتهذيب البرادعي وواضحة ابن حبيب مستعيضا عنها باحاديث اقتبست من المصنفات العشرة على غرار ما نسقه ابن تومرت من احاديث الطهارة فصار المنصور يمليها بنفسه كما يفعل السلطان العلوي محمد بن عبد الله في القرن الثاني عشر الهجري (15) وقد انتشرت هذه المجاميع وحفظها الناس من العوام والخواص (16) فكان فيها ثراء للغة وانحرفت منذ ذلك العهد في الفصحى والعامية مآت الكلمات ذات الاصل القرءاني والحديث الفقهي . ومعلوم ان الاشعري لم يكن يؤمن بقدرة العقل المطلقة في البحث عن البراهين للدفاع عن الدين ولكنه لم ينكر ايضا قيمة العقل فلذلك هدف الى ابراز « موافقة العقل الصريح للشرع الصحيح (17) ولم تكن هذه الانتفاضات الموحدية خلوا من دخيل سياسي كالمهدوية الشيعية التي عزز بها ابن تومرت نظام دولته .

وتروى في قصة المهدوية احاديث وآثار واخبار اوصلها ابن ابي نعيم الى الاربعين واضاف اليها السيوطي المصري ما نماها وحللها فراجت في المغرب واثارت موجة من الادعاءات حملت ابن خلدون على نقضها وتفصيل القول في مناكرها ومع ذلك ظهر متنبئون كابن هود الماسي وحاميم الغماري وابن ابي محلى ووجد الكهان مجالا واسعا لمخاريق اسندوها الى حسابات الجفرية وهي جداول منسوبة الى جعفر الصادق امام الشيعة محشوة بالتنبؤات عن ماجريات المستقبل بارقام ومربعات اصبحت لغة للكتاب

---

(12) بني جامع الازهر جوهر الصقلي عام 359 او 360 هـ في حين تاسس جامع الزيتونة سنة 141 هـ (758 م) (صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار للشيخ بيرم ج 1 ص 122)

(13) اكد ملاقاة ابن تومرت والغزالي ابن الخطيب في الحلل واليوسي في المحاضرات والزركشي في تاريخ الدولتين والزبيدي ولم يجزم ابن خلدون في تاريخه ولا صاحب المعجب وقطع بنفيه ابن الاثير في الكامل والصواب في نظرنا التوقف لعدم وجود الدليل على هذا اللقاء .

(14) اول من ادخلها الى فاس دراس بن اسماعيل المتوفى عام 362 هـ

(15) الا ان هذا السلطان كان ينهى في نفس الوقت عن تدريس الاصول اذ لم يبق في نظره اجتهاد (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 213).

(16) المعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (طبعة سلا عام 1357 ـ 1938 ص 177)

(17) هذا عنوان كتاب للحافظ ابن تيمية وقد ثار ابو بكر بن العربي في كتابه (القواصم والعواصم) ضد ما اصاب العلماء في عهد المرابطين من جمود على تفاريع المذهب وضد طريقة التعليم التي تدرجت آنذاك من تلقين القرءان الى الادب ثم الموطا فالمدونة فوثائق ابن العطار فاحكام ابن سهل .

المشهوذين وخاصة في الاطلس الصغير وذاع صيت المغاربة شرقا لاستبحارهم في علوم الطلاسم والتنزلات الروحانية التي تخللت تمابيرها حروف سريانية وعبرية وتداخلت هذه المعطيات مع اسرار التنجيم التي خبرها فقهاء ومتصوفة ادرجوا معها خواص الاسماء وكان لذلك اثره في تعقيد التأويلات القرءانية وخلق مصطلحات جديدة اورد بعضها ابن خلدون الذي علل لنا ببراعته بعض مناصرها مشيرا الى تكهنات مالك بن وهيب فقيه المرابطين ضد ابن تومرت الذي استغل في دعاويه هذا الاستعداد الفطري في نفوس العامة فبدأ بتاسيس رابطة للعباد جمع فيها طلبة القبائل ولقنهم تعاليم التوحيد بكتابه « المرشدة » باللسان البربري ولقب انصاره بالموحدين ووصم خصومه بالتجسيم وهب لقتالهم باسم الدين ومهما يكن فان سوق القرءان والحديث نفق فظهر اول تفسير للقرءان لابن عطية اقتبسه من كشاف الزمخشري مجردا من عناصر الاعتزال كما تتلمذ للشرق محدثون مغاربة منهم ابن سمجون اللواتي الطنجي الذي اقام يقرر الحديث في المشرق ولم يدخله حتى حفظ ـ كما يقول ياقوت ـ اربعة وثلاثين الف بيت من شعر الجاهلية (18) ومحمد الجياني (19) البغدادي الذي روى عن الطبري وجلب من تاليفه احكام القرءان واصول الفقه والرد على ابن حنبل وميمون بن ياسين الذي قرأ على الطبري صحيح سلم وجمال الدين البغدادي الشافعي الذي ولد بقصر تامة بشمال المغرب وعمر بن الطوير المراكشي (20) الذي عرف في مصر بابي الخطاب السوسي وادخل الى المغرب مسائل الخلاف وحفظ البرهان لامام الحرمين ومحمد بن المنذر المراكشي (21) تلميذ امام الحنابلة الشيخ مولاي عبد القادر الجيلالي وقد درس الحديث والفقه بغداد ومحمد بن الخضار السبتي الذي سمع من ابن الصلاح كتابه في علوم الحديث (22) وعلي الحرالي الذي كان ابتدع في التدريس منهاجا « يتنزل في التفسير منزلة اصول الفقه في الاحكام » ملاوة على تبريزه في المنطق والطبيعيات والالهيات (23) ومحمد بن عمران الشريف الكركي الفاسي شيخ المالكية والشافعية بالديار المصرية والشامية (24) ويونس بن طريفة القصري الذي ولي التدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة سنة 641 هـ وبذلك اعطى المغرب الاقصى الدليل الناصع على اهلية كاملة لتحمل رسالته الروحية الخالدة في العالم الاسلامي وبرزت فحص هذا الشق النائي من جناحي العروبة كابلغ ما تكون العربية في اصالتها وجزالتها ودقة مصطلحاتها في الخلاف العالي والتفاريع الفقهية وبذلك يمكن القول بان الانتاج المغربي قد اتحد مع الشرق في هذا المجال مبنى ومعنى على ان نزعة الاصلاح والتجديد لم تقتصر على الطب والصيدلة والكيمياء والفلسفة ـ كما سنرى بحول الله ـ بل شملت حتى علوم الآلة كنظرية ابن مضاء قاضي (25) قرطبة ايام الموحدين انكار العامل في النحو ، وقد اصبحت فاس(26) آنذاك بجامعتها حاضرة المغرب العلمية وملتقى علمي (27)

---

18) معجم البلدان ج 6 ص 62 (19) توفي عام 546 هـ (سلوة الانفاس ج 3 ص 267)

20) توفي عام 622 كما في الذيل والتكملة .

21) الاعلام للمراكشي ج 4 ص 883، (22 توفي بدمشق عام 634 هـ (درة الحجال ص 282) .

23) حتى كان يقض النجاة لابن سينا انيل الابتهاج بابا السوداني ص 187 ، . (24) قال فيه تلميذه القرافي انه تفرد بمعرفة ثلاثين علما وحده وشارك الناس في علومهم (الديباج المذهب لابن فرحون ص286)

25) احمد امين اظهور الاسلام ص 118) حيث لاحظ نقلا عن ابن جني « ان الحركات من الرفع ومن النصب والجر والجزم انما هي للمتكلم نفسه لا لشيء غيره .. وان ضرب انتهت بمجرد النطق بها فلا يمكن ان تكون عاملا في زيد او عمرو .. »

2) المعجب للمراكشي ص 221 .

27) وصف هذه الدروس الرحالة البلجيكي اكلينار الذي زار المغرب عام 948 هـ (1540 م.) وكتب رسالة باللاتيني عن القرويين وعوائد الطلبة واوصل عدد مدارس فاس الى المائتين ولعله يعني الكتاتيب القرءانية .

القيروان وفرطبة وتركزت في القرويين بالاضافة الى علوم التفسير والحديث والاصول والفقه والعلوم التقليدية كالنحو والبيان والمعاني والبديع والمنطق والعروض والكلام والتوحيد والتصوف واللغة والادب والتصريف وكذلك الطب والرياضيات (وهي الحساب بالمغرب) والجغرافية والتاريخ وتزيدات افواج الطلبة الواردين على فاس من مختلف الاقطار الافريقية والغربية مثل جيربير Gerbert الذي عين بعد ذلك على راس الكنيسة باسم البابا سلفستر الثاني Sylvestre II عام 999 م وادخل الارقام العربية الى اوربا . وقد عززت دولة بني مرين هي الاخرى نظامها السياسي بتكتيل الطلبة تحت شعار السنة وبناء المدارس (28) ومساندة الصوفية وتشجيع الزوايا والاضرحة التي نفق فيها ـ كما سنرى ـ سوق جديدة بعاداتها وتقاليدها ودسائسها ومناطق نفوذها وادبها الخاص ولغتها ومصطلحاتها .

ورغم تصارع الافكار في هذا الخضم من البدع التي غزت السنة في عقر دارها فان العلم بالمغرب ظل محاطا بسياج من القداسة بالرغم عن فقدان الملكة والتحقيق العلمي ـ كما يقول ابن خلدون (29) وغلبة الاستظهار حتى قال علي بن ميمون الذي زار الشرق فوازن بين فاس وبين حواضره في الشام والحجاز ومصر من حيث الاصالة العلمية فقال : « ما رايت مثلها (اي فاس) ومثل علمائها في حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل وغزارة الحفظ لنصوص امامهم مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل علم مثل النحو (30) والفرائض والحساب وعلم التوقيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب وسائر العلوم العقلية . .

وقد تابع مآت العلماء رحلاتهم الى الشرق نذكر منهم كنماذج لنوع التبادل بين الجناحين :

تاج الدين محمد بن ابراهيم المراكشي (701 ـ 752 هـ) الذي اعاد بقبة الشافعي بالقاهرة وولي تدريس المسرورية ودار الحديث الاشرفية حيث خلفه تقي الدين السبكي (31) وابن السواق احمد التجيبي الذي استظهر الموطا بمصر فضرب شيوخ المالكية الطبول على راسه (32) .

والمحدث الفقيه التاودي بن سودة الفاسي شيخ مرتضى الزبيدي (33) .

وابن زكري الفاسي الذي عقد علماء الازهر مجلسا لمناظرته في القضايا الفقهية كشرب الدخان (34) .

ويحيى بن موسى الرهوني الحافظ الاديب المنطقي الذي تولى التدريس في المنصورية والخانقاه الشيخونية بالقاهرة (35) .

وجمال الدين محمد بن موسى المراكشي الذي سمع من شيوخ مصر والشام والقدس واليمن حيث ولي مدرسة الناصر (36) .

والكمال بن ابي البركات المكناسي شيخ المحدث الحافظ ابن حجر العسقلاني (37) ومحمد تقي الدين الفاسي الذي وافق ابن حجر في السماع بمصر والشام واليمن (38) .

وابن الخطري المراكشي المصري الذي ذكر المقريزي انه كان يحفظ العمدة والالمام لابن دقيق العيد

---

(28) مفضل العذري صاحب الشرطة والحسبة بفاس اول من سن سنة بناء المدارس (جذوة الاقتباس لابن القاضي ص 220) وقام فعلا بنائها محمد الابلي العبدري شيخ ابن خلدون ملاحظا ان ملكة العلم اندرست مع بناء المدارس،ايده بابا السوداني (نيل الابتهاج ص 246) وقد بلغ عدد المدارس بفاس اربعة عشر هي عبارةعن احياء جامعية اي مساكن للطلبة تحتوي على غرف

(29) نشر المثاني للقادري ج 2 ص 97) .

(30) كان موسى بن زيري الهسكوري المعروف بالبخاري يحفظ كتاب سيبويه عن ظهر قلب (درة الحجال ـ طبعة الرباط 1934 ص 314). (31) الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج 1 ص 458). (32) توفي عام 725 هـ (السلوة ج 3 ص 244 . (33) راجع مادة سود في شرح القاموس للزبيدي .

(34) السلوة ج 1 ص 83 . (35) توفي 774 هـ (درة الحجال ص 490) . (36) مات عام 823 هـ ؛ الاعلام للزركلي ج 4 ص 50 وذيول طبقات الحفاظ . (37) الاصابة ج 4 حرف م. (38) نيل الابتهاج ص318)

والشاطبيتين والطوالع في اصول الدين وابن الجلاب والرسالة في الفقه والحاجبية والملحة وغالب الفية ابن مالك والتلخيص وقد طارح الادباء وقرض الشعر وشارك في اللغة والطب والهيئة وولي تدريس الفقه في مصر بجامع الحاكم والقرانسقرية والحسنية والحديث بالفاضلية والاعادة بالكاملية والمنصورية (39) .

وعبد الرحمن سقين الذي اخذ الحديث عن القلقشندي وزكرياء الانصاري والسخاوي بمصر وعن ابن فهد بمكة (40) .

وادريس العراقي الفاسي الذي كان له كما يقول صاحب السلوة فضل على محدثي مصر حيث استدرك احاديث كثيرة على الجامع الكبير للسيوطي تنيف على الخمسة الاف وكان احفظ من ابن حجر (41) .

ومحمد بن محمد بن سليمان الروداني الفاسي الذي وصفه صاحب خلاصة الاثر بانه « فرد الدنيا في العلوم » حصلت له بعد التطواف بمصر والحجاز والشام وبلاد الروم الرياسة العظمى في علوم خاصة كالطبيعي والالهي والرياضي والارتماطيقي والمساحة والرمل والحروف والسيمياء (42) وله كتاب جمع فيه كل مصنفات الحديث ضمن مقارنات علمية قلما (43) .

ومدرسة الشيخونية كانت اكبر مدرسة بمصر تضم اليها علماء مغاربة برزوا في شتى العلوم والفنون وقد قامت على اكتاف الفنان عبد الكريم الفاسي — كما يقول تيمور — (45) نهضة متواضعة في صناعة الخزف بمصر في القرن الماضي حيث كان يصنع الواح القاشاني (تسمى الحائطيات بالمغرب) لتغطية جدران العمائر وتوجد الآن نماذج منها في دار الآثار العربية بالقاهرة .

ولم يخل المغرب الاقصى في مختلف العصور بزوار من علماء المغرب اذا استثنينا الوافدين في عهد المنصور السعدي (أي أوائل القرن الحادي عشر الهجري) من الحجاز وفلسطين ومصر والشام والعراق والهند وقد سبق لصلاح الدين الايوبي ان بعث وفدا الى المنصور الموحدي عام 585 هـ يطلب منه امداده باسطول لمحاصرة عكا وصور وطرابلس الشام واوفد اليه ابا الحرث عبد الرحمن بن منقذ مع رسالة من انشاء القاضي الفاضل وقصيدة من نظم ابن منقذ مطلعها :

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته
الى بحر جود ما لاخراه ساحل

وكل من الرسالة والقصيدة لا تختلفان في معناهما ومبناهما عن اللون العادي المتحجر الذي وسم الادب العربي في هذا العصر شرقا وغربا والذي جعل مصطلحاته متناسقة موحدة .

واستسمح حضرات الاخوة اذا انا ازعجتهم بلائحة طويلة استهدفت من سرد اسمائها اعطاء صورة عن اتجاه علماء المغرب الجديد في اعطاء الاسبقية للعلوم الاسلامية لاسيما منها التفسير والحديث والفقه مما اضفى على دراساتهم — رغم كلاسيكيتها وتفاريعها الاستطرادية المملة — طابعا خاصا جعل منها مرجعا هاما في تاريخ التشريع الاسلامي وتاريخ تطور اللغة واذا كان الرحالون المغاربة من العلماء قد تضاءلوا في القرن الماضي بسبب الحواجز الاستعمارية التي اقيمت في طريق الحجيج بالجزائر منذ عام 1830 م فان المغرب ظل مع ذلك يتتبع بتلهف جميع حركات التجديد المنبثقة من الشرق ويوالي بعث وفود رسمية تحمل دوريا هدايا وصلات لرجال الفكر وارباع الاوقاف المرصودة لاعانة الطلبة (46) وقد جدد السلطان محمد بن عبد

---

39) توفي عام 872 هـ (الاعلام ج 4 ص 125 . (40) السلوة ج 2 ص 160 .
41) السلوى ج 1 ص 142 . (42) توفي عام 1094 (الاعلام للزركلي ج 4 ص 334) .
43) طبع باسم مجمع الفوائد في مجلدين .
44) نيل الابتهاج ج 84 و 96 وقد كان بمصر في اواخر القرن الماضي (عام 1898 م) نحو 1500 مغربي (الوثائق المغربية ج 11 ص 1907) .
45) في كتابه حول التصوير عند العرب .
46) وقد حبس السلطان محمد بن عبد الله مصنفات شتى على مكاتب القاهرة والاسكندرية وجلب كتبا من الشرق ورتب لاهل الحجاز واليمن مائة الف مثقال ذهبي كل عام (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 251) والمثقال الذهبي قد عوض الدينار بالمغرب وضرب نوع منه بالرباط عام 1787م وكانت قيمته اقل من الدينار .

الله عصر الموحدين بالدعوة الى السلفية ودراسة الحديث وامهات الكتب تركيزا للملكة العلمية بدلا من الانكباب على المختصرات التي حجرت الفكر وضرب لذلك امثلة حية بتصنيف نماذج رائعة كما اصدر نجله السلطان سليمان رسالة نحا فيها منحى السلفية الصحيحة بالتحذير من الحياد عن المذهب السني وعدم التغالي في المراسيم الصوفية وكان كتاب عبد الله بن سعود قد وصل وانذاك الى تونس وفاس يحتل اسس الدعوة الوهابية . اي المذهب السلفي كما يراه محمد بن عبد الوهاب) فتصدى للجواب عنه عالم فاس الشيخ حمدون بن الحاج باسم السلطان وحمل الجواب الى الحجاز نجله الامير ابراهيم في وفد من العلماء لمناظرة الوهابيين .

وهكذا برهن المغرب دوما عن روح اسلامية فياضة اهلت الشمال الافريقي لاحتضان التراب الاندلسي ولربط امجاد الماضي والحاضر والسهر على معطيات الفكر الاسلامي في سلفيته الحق ولطبع الاجيال المتوالية بميسم المثالية في نطاق الوحدة الاسلامية وكانت هذه الروح تذكي حتى المراة في خدرها بالرغم عن الدور المحدود الذي اسهمت به في تركيز التكوين الفكري في المجتمع المغربي نظرا لانتشار الامية بين النساء واذا كانت المراة هي المدرسة الاولى للحياة والنواة الجوهرية للدم الوهي الديني داخل الاسرة فان حصافة المراة المغربية قد جعلت منها ـ بالرغم عن ثقافتها المحدودة ـ مربية بارعة تضرب المثل الحي برصانة تفكيرها وحسن تدبيرها على ان ثلة من النساء قد نبغن ـ على قلتهن ـ في مختلف المجالات الثقافية وخاصة في العلوم الاسلامية كخيرونة الفاسية والشيخة ام قاسم الاسفية وام هانيء العبدوسية، وقد توالى بناء المدارس الدينية حتى بلغ عددها المائتين في سوس وحدها وانتشرت آلاف الكتاتيب القرءانية على نطاق واسع في السهل والجبل كروافد للكليات والمعاهد «الاصلية» التي انطلق منها الاشعاع الديني بلغة القرءان وقد ظلت جامعة القرويين طوال مدة الاحتلال الاستعماري منبثقا للاحرار الذين اججوا نار الثورة وولقوا الصلة مع زعماء الاسلام في الشرق امثال الافغاني وعبده ورشيد رضى ـ بعد ما اوهنتها دسائس الاستعمار .

وهكذا نستجلي من هذا الاستعراض لتطور الفكر الاسلامي في المغرب الاقصى صورا لوحدة اللغة وتناسق مصطلحاتها مع الشرق العربي بفضل جهود دائبة ما فتيء يبذلها رسل الفكر طوال الف عام من الاستقلال الا ان المغرب الاقصى ربما انفرد بون خاص يرجع لانتشار حفظ القرآن والحديث والمتون الفقهيه والنصوص النحوية وحتى المعاجم اللغوية . (في شنقيط وسوس) مما فسح المجال لمات المفردات العربية الخالصة التي طعمت لغة الخاصة والعامة وكان للحلقات العلمية التي تعقد يوميا وبحضرها الجمهور في مختلف المساجد (وما اكثرها بالمغرب حيث بلغت بفاس وحدها في عهد الموحدين زهاء خمسين وسبعمائة) اثر قوي في توعية الشعب وتفصيح لسانه حتى اصبحت الآي القرءانية والاحاديث النبوية والحكم الصوفية تتردد على كل لسان وامسى القرءان معجم المساكين ـ كما يقول المثل العامي ـ يصححون منه اللغة واذا قصرنا التنظير بجزء يسير مما ورد في كتابنا « المعجم الصوفي من القرءان » فان حرف الالف منه يبلغ المائة منها كلمات الاخلاص وارذل العمر والاستدراج والاستغاثة والاستغفار والاستقامة والاسراب والاصنام والاطلاع على الغيب والاعتصام والاقتصاد واقشعرار الجلد والالواح والامانة والامتثال والانابة وانباء الغيب والانذار والانصاب والانفاق والاوان والاوثان والاوليا والالحاد والائمة والايمان .

وقد دخلت كثير من التعابير القرآنية في لغة العامة مثل قولهم « قتل كيف قدر » (اي ماد طبقا لما قدر في الازل) و«قاتلهم الله» و«خذو فاقتلوه» (وهي كناية عن فعل الشيء باستعجال وبالله وتعال (بمعنى تعال وائت) وقل باسم الله او توكل على الله (اي اشرع في العمل) والصلا على النبي (اشارة الى النهاية او الكفاية خيرا ا انشاء) ولا الضالين (كناية عن الموافقة بدلا من نعم وبالتي هي احسن (اي بالمهل) الى غير ذلك .

ومن المصطلحات التي تسربت الى الفصحى والعامية عن طريق الحديث النبوي الشريف قولهم حج فلان (اي بلغ الغاية) وصلى عليه صلاة الجنائز (أي يئس من خيره وشره واعتبره كانه مات ، وكفر عليه (اي اغتاظ منه) وفلان حال واحوال (اي كثير التغير) وقد استعملت مثلا لفظتان في المغرب بمعنى خاص طبقا لمفهوم حديثين شريفين وهما « المطاهر » بمعنى المراحيض (وتسمى عندنا ايضا الميضاءات طبقا للحديث الذي رواه مكحول عن معاذ مرفوعا « اتخذوا على ابواب مساجدكم المطاهر » وكذلك لفظ « البيت » بمعنى الجزء الصغير من الدار كله

فمن احمد بن حنبل ان زوجة ابي حميد الساعدي قالت : « يا رسول الله اني احب الصلاة معك » قال : « قد علمت انك تحبين الصلاة معي وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك » واما كتب الفقهاء فقد دقت مفاهيمها وكتبت حول نصوصها ومتونها مآت الشروح التحليلية واصبحت لغتها من اعمق اللغات دلالة ووضوحا وقد وضعنا معجما للفقه المالكي (باللغتين العربية والفرنسية (47) يعطينا صوره عن مدى تلك الدقة وقد اندرج معظم هذه الالفاظ في الحياة اليومية ونكتفي هنا بالاشارة الى كلمات من حرف الالف كإبراء واتفاق العلماء واثبات الدليل والاجبار والاجتهاد والاجارة والاجرة والاجل والاختبار والارتداد والاكراء والاستحقاق والاستحالة والاستماع والاشتراك والاصول والاغتصاب والافتاء والاقالة واقامة الحدود والاقرار واقامة البينة والامر بالمعروف وامضاء البيع وامارة المومنين والاتفاق والانكار واهل الحل والعقد .

وقد كان للروح الاستقلالية في التشريع بالمغرب مظهرها البارز في الاجتهاد داخل المذهب المالكي نفسه حيث فرضت فاس مثلا نظرها الخاص في قضايا قانونية وفقهية تجلت في العمل الفاسي الذي نظمه الشيخ عبد الرحمن الفاسي وشرحه الشيخ السجلماسي .

وقد صنفت الآلاف من الكتب في الفقه والفتاوي والنوازل والاحكام بدت ما عرفه الشرق وحفلت بالتعريفات الدقيقة للمفاهيم والمدلولات التي تزخر بها تلك المصنفات حتى صار الدرس الفقهي في كراسي جامعة القرويين عبارة عن تحليل لتلك التعاريف (48) التي كثيرا ما تنظم شعرا كقول ابن عاصم في تحفته :

وما أنتهت للجوف فهي الجائفة

وقوله :

والرتق داء الفرج في النساء
كالقرن والمفصل والافضاء

والبضع بالبضع هو الشغار
وعقده ليس له قرار

وسمي الضامن بالجميل
كذاك بالزعيم والكفيل

والجنس بالجنس هو المراطلة
بالوزن أو بالعد فالمبادلة

ولا تخلو بعض مصنفات الفقه في الشرق من هذا الايجاز الغامض التي حررت الملازم « العديدة » لحل الغازه كمختصر الشيخ خليل المصري الذي ادخله الى المغرب منذ القرن الثامن الهجري محمد ابن الفتوح أمكناسي (49) والذي حفظه الطلبة وحتى العامة عن ظهر قلب وبذلك تكون العلوم الاسلامية قد اسهمت بحظ وافر في تطوير لغة الضاد بهذا الجناح الغربي للعروبة . غير ان التعليم الاسلامي ما لبث ان تقلص وتقلصت معه حركة الوعظ والارشاد في المساجد وما تستتبعه من توعية شعبية عن طريق اللغة العربية وبدات الاذاعة والتلفزة والصحافة تقدم يوميا للشعب حصيلة لا باس بها من مصطلحات العصر تعزز احيانا بفتاو دينية تصل بين ماضي هذا البلد المسلم المحافظ وحاضره المتارجح بين مختلف التيارات وراى حماة العربية من رجال القرويين وغيرهم في ذلك ماساة لمستقبل اللغة في روعتها الاصيلة فحدت خفارتهم اليقظة الجيل الجديد الى الدعوة لعربية عصرية تستجيب لمقتضيات الحضارة الحديثة وللتقنيات الملحة في دقتها ووضوحها .

---

(47) نشر في العدد الرابع من مجلة اللسان العربي (ص 215) مع المعجم الصوفي (ص 176) .

(48) عرفت تونس ايضا شيئا من ذلك يتجلى في تعريفات ابن عرفة .

(49) المتوفى عام 818 هـ (درة الحجال ج 1 ص 293) وقد دخلت كتب الحديث واللغة الى الاندلس ومنها الى المغرب على يد قاسم بن ثابت بن حزم وهو اول من نقل كتاب العين (تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ج 1 ص 294) كما نقل ابن الضابط عثمان بن ابي بكر الصدفي كتاب غريب الحديث للخطابي ومحمد بن ابراهيم التلمساني شامل بهرام وشرحه لمختصر خليل وحواشي التفتازاني على العضد وابن هلال علي ابن الحاجب في الفقه (شجرة النور ص 254) اما في الادب والفلسفة فقد ادخل عثمان بن المثنى القرطبي (المتوفى عام 273 هـ) شعر ابي تمام بعد ان قرا عليه (ابن الفرضي ص 249) وفرج بن سلام القرطبي كتاب « البيان والتبيين » باجازة من الجاحظ (ابن الفرضي ص 286) وابو الحكم الكرماني رسائل اخوان الصفا (طبقات الامم ص 71).

الأثر الصوفي

التصوف المغربي قطعة حية من التصوف الاسلامي العربي لما تركته نظريات الصوفية المغاربة من آثار عميقة في الفكرة الصوفية الشرقية .

ونزعة فصل التصوف عن الروح العربية الاسلامية نزعة شبيهة بما حاوله بعضهم امثال رونان الذي قرر في كتابه (ابن رشد ومذهبه) (Averroès et l'Averroïsme)من ان ما يسمونه فلسفة عربية ليس الا مجرد محاكاة او تقليد لارسطو وضربا من التكرار لآراء وافكار اليونانيين كتب باللغة العربية (ص 7) ولكنه تناقض مع نفسه حيث اعترف (ص 89) (بان العرب مثل اللاتين ـ مع نظاهرهم بشرح ارسطو عرفوا كيف يخلقون لانفسهم فلسفة ملأى بالعناصر الخاصة ومخالفة جد المخالفة لما كان يدرس في الليسيوم) ولم يخف هذا التناقض على احد معاصري رونان وهو دوكا الذي ذكر في مقدمة كتابه (تاريخ الفلاسفة وعلماء الكلام المسلمين) انه لا يمكن لعقلية كعقلية ابن سينا الا ان تنتج جديدا .

وقد ضربت مثلا بالفلسفة (50) لما بينها وبين التصوف من وثيق الصلة حتى قيل ان التصوف قطعة من مذهب الفارابي الفلسفي لا ظاهرة عرضية فيه كما يزعم كارادوفو صاحب (مفكرو الاسلام) وقد تأثر الفيلسوف المغربي ابن طفيل بالنزعة الصوفية في (رسالة حي بن يقظان) حيث وصف بطل القصة (ص 114) بانه (لما فني عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود الا الواحد القيوم وشاهد ما شاهد عاد الى ملاحظة الاغيار عندما افاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر خطر بباله ان لا ذات له يغاير بها ذات الحق وان حقيقة ذاته هي ذات الحق ... بل ليس ثمة شيء الا ذات الحق) وقد ذهب الناس مذاهب شتى في تعريف التصوف حتى ساق ابن السبكي في طبقاته (ج3 ص 239) الف تعريف سهر على التقاطها من مختلف المصادر ابو منصور عبد القاهر البغدادي ورتبها تبعا لاصحابها على حسب الحروف الهجائية .

ويلذ لي ان انقل لهؤلاء الذين يزعمون ان التصوف المغربي تاثر بالنزعة الصوفية المسيحية ـ لاسيما ماسينيون الذي زعم ان الشيخ ابن عربي الحاتمي استمد من نظريات الكنيسة ما قرره المستشرق الاسباني اسين بلاسيوس من ان نزعات دانتي (Dante) الايطالي واوصافه لعالم الغيب مستمدة من كتب محيي الدين الحاتمي دون كبير تصرف وكذلك اكهارت الالماني اول الفلاسفة الصوفية الغربيين الذي نشأ في القرن التالي لعصر ابن عربي ودرس في جامعة باريس وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الاندلسية في الحكمة والعلوم وقد اقتبس ريموند من ابن عربي خاصة في كتابه (اسماء الله الحسنى) لانه كان يحسن العربية وعاش بعد ابن عربي بقرن واحد وجعل اسماء الله الحسنى مائة وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل ذلك .

وسبينوزا Spinoza اليهودي البرتغالي كان كلامه من الذات والصفات نسخة من فلسفة المتصوفة المسلمين مع قليل من التحوير والمسيحية تكاد تكون فارغة من الفكرة الصوفية كما اعترف بذلك ميشو بيليير في محاضراته (ص 29) حيث ذكر انه اذا استثنينا ما في بعض الاساطير من ذكر الكرامات وكذلك سيرة القديسة تيريز والقديس فرانسوا داسيز فانه لا يبقى شيء بالمرة .

ويقول جامي في نفحات الانس (ص 34) بان اول من تسمى صوفي هو ابو الهاشم الكوفي المعاصر لسفيان الثوري ويرى السراج في اللمع (ص 22) ان اهل بغداد هم الذين اخترعوا هذه الكلمة .

واول من تكلم في بغداد في الحقائق الالهية والتوحيد سري السقطي (تذكرة الاولياء ج1 ص 274) واول من حاضر الناس في التصوف يحيى بن معاذ الرازي المتوفى سنة 258 هـ (التذكرة ج 1 ص 299) .

---

(50) احمد بن عبد الله بن محمد الدرعم المراكشي نزيل القاهرة جنح الى التصوف الفلسفي ونسخ الفتوحات المكية والتنزلات الموصلية فكان ابو حيان لذلك يرميه بالزندقة وصار هو يصف ابا حيان بانه ظاهري حتى في النحو .
واحمد بن ابراهيم بن احمد بن صفوان : مشارك في الفلسفة والتصوف كلف بالعلوم الالاهية تلميذ ابن عبد الملك المؤرخ وشيخ ابن الخطيب .

وقد اصبح التصوف مذهبا منظما اثناء الجزء الاخير من القرن الثالث (نيكولسن ص 28) ويلوح من ثنايا الرسالة القشيرية والتذكرة ونفحات الانس ان صوفية هذا القرن اتخذوا القرءان والسنة ميزانا لجميع ما يخوضون فيه من بحوث نظرية وما يحسونه من حالات وجدانية .

ولكن منذ ذلك العصر تسربت شوائب مريبة الى الفكرة الصوفية التى بدات نقية طاهرة وقد ذكر عبد الله الانصاري الهروي المتوفى سنة 481 هـ ان كثيرا من الاكاذيب انتحلت باسم ابي يزيد البسطامي مثل قوله صعدت الى السماء وضربت قبتي بازاء العرش (نفحات الانس ص 63) وهو القول الذى بنوا عليه قضية معراج ابي يزيد التى يقصها فريد الدين العطار فى تذكرته بتفصيل .

وانتظام هذا المذهب ليس معناه اتحاد وجهات نظر من دان به لان تعاريف التصوف بلغت كما قلنا الالف ورد منها مائتان فى الرسالة والتذكرة والنفحات وهذه التعريفات العديدة تدل على تعدد وجوه النظر فى تصور الفكرة الصوفية (مجلة الجمعية الاسيوية سنة 1906 ص 330) فقد عرف الكرخي التصوف بانه الاخذ للحقائق واليأس مما فى ايدي الخلائق (الرسالة القشيرية ص 149) ووصفه ابو حفص الحداد بانه تمام الادب (التذكرة ج 1 ص 331) وذكر ابو الحسين النوري ان التصوف برقة محرقة (الرسالة ص 149) وقرر ابو سعيد بن العربي ان التصوف ترك الفضول (نفحات الانس ص 348) وقال ابو الحسن اليوشنجي : التصوف ضعف الامل ومداومة العمل .

اما الخانقاهات والرباطات الصوفية فقد بدات تظهر قبل نهاية القرن الثاني الهجري واول خانقاه اسس لمتصوفة المسلمين (على ما فى النفحات ص 34) كان بالرملة فى فلسطين وذكر المقريزي فى خططه (ج 2 ص 414) ان الخانقاهات ـ او الخانقاوات كما يسميها ـ وجدت فى الاسلام فى القرن الخامس الهجري .

والخانقاه اعمق فى التزمت والرهبنة مما عرف بعد بالروايا لان هذه الخانقاهات كانت مبنية فى معظمها على نظام صارم من التبتل والرهبنة .

ان تاريخ الحركة الصوفية جزء من تاريخنا العام الذى لا يشمل الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي فحسب بل يتجاوزه الى الجانب الثقافي والروحي . على ان التصوف المغربي كان له كبير اثر فى توجيه وتلوين جميع مرافق الحياة بحيث انتشرت شذراته فى مصنفات لم يكن من المنتظر ان تحفل به فانك تجد اخبار الصوفية وحياة الزهاد ووصف الحركات الطرقية التي قامت فى المغرب في وقت مبكر ـ مبعثرة فى كتب التاريخ والتراجم والمناقب والفهارس والرحلات ، بل حتى كتب الفقه مثل شرح ميارة على المرشد ومعيار الونشريسي الذي تحوي اجزاؤه نتفا متناثرة لو نسقت لتحصلت منها مجموعة لابأس بها فى وصف التيارات المتعاكسة التى خلقها انبثاق الطرقية فى المغرب .

ويغلب على ظننا ان الحركة الصوفية كانت انشط فى الجبل (لاسيما الريف) والقرى منها فى الحواضر اللهم الا بعض مدن الساحل التى كانت مهبطا لصوفية الاندلس كسبتة واسفي وسلا او مدن داخلية كمراكش وفاس نظرا لاشعاعها الثقافي الذى تنجذب له النفوس .. ومهما يكن فان اولى التراجم الصوفية انما حظيت بها قرى البادية ككتاب « المقصد الشريف والمنزع اللطيف فى ذكر صلحاء الريف » لعبد الحق البادسي (فى القرن الثامن) والمعزى فى ترجمة ابي يعزى « وائمد العينين » لابن تجلات فى مناقب الاخوين الهزميريين الذين عاشا ردحا طويلا فى اغمات ثم حظي صوفية المدن بكتب منها « المنهاج الواضح » فى ترجمة ابي محمد صالح (المتوفى عام 631) تلميذ ابي مدين الغوث ، ومدينة اسفي نفسها انما بنيت حول ضريح ابي محمد صالح كما قامت مدينة زرهون حول الضريح الادريسي بعد بناء المولى اسماعيل لهذا الضريح عام 1110 هـ وتاسيسه جامع الخطبة الكبير المتصل بالضريح وكذلك وزان) «والسلسل العذب الاحلى فى صلحاء فاس ومكناسة وسلا » لمحمد الحضرمي الذى صنفه فى القرن الثامن وكذلك « الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعباد » .

ولعل من اقدم الرباطات المغربية رباط وجاج بن زلو اللمطي السوسي الذى كان يسمى دار المرابطين وقد اتخذ مجمعا لطلبة العلم وقراء القرءان حسبما ورد فى التشوف (ص 36) الذى نجد من بين رجاله الصوفية كثيرا من « المعلمين » المنقطعين لتعليم

كتاب الله . وهذا مظهر ثان لنوع ما كان يشتغل به الصوفية اذ ذاك وسنرى فيما بعد كيف تطورت الفكرة الصوفية فانضافت الى التعبد بالقرءان تعبدات بالادعية والاذكار .

وكان هناك نوعان (51) من الرباطات : رباط من الطراز الذي اشرنا اليه وكان يشمل المدينة بكاملها كرباط ماسة ورباط تيط ورباطة زرهون ورباط من نوع آخر هو عبارة عن محلة يرابط فيها المجاهدون وقد روى ان الضفة اليسرى لمصب ابي رقراق كان يرابط فيها نحو من مائة الف من الغزاة الذين كانوا يتطوعون لمقاومة النحلة البرغواطية .

وبين هذه وتلك الرابطة التي ابتناها عبد الله ابن ياسين في جزيرة قرب الساحل وتبتل فيها ثلاثة اشهر مع نفر من كدالة وفي مقدمتهم يحيى ابن ابراهيم امير صنهاجة وقد توارد الناس على هذا الرباط حتى بلغ عدد المرابطين الفا من اشراف صنهاجة كانوا النواة التي قامت بتاسيس الدولة المرابطية فكانت هذه هي الدولة الثالثة التي قامت في المغرب على اساس فكرة مذهبية بعد الدولة المدرارية في سجلماسة والدولة الادريسية في الشمال وقد فسح استعداد المغاربة الروحي المجال للدعاة المهدوية مثل محمد بن تومرت الذي اسس دولة الموحدين والعبيدي الذي قام بعده في جبل ورغة من احواز فاس حيث تبعه كثير من قبائل المغرب اول عام 600 هـ .

وكانت نفس الحركة ملحوظة كذلك في الاندلس ايام المرابطين حيث ذكر صاحب لسان الميزان (ج 1 ص 247) ان احمد بن قسي ابتنى مسجدا في بعض قرى شلب (بالبرتغال) وتحدث بالاباطيل ، كما ادعى النبوة ابراهيم الفراري الساحر .

وقد تسربت الى المغرب من الاندلس الطائفة المسرية التي لم ينتشر نفوذها لقيام العلماء بنقده وفي طليعتهم الامام ابن حزم الذي لا نعرف نظريات ابن مسرة الا من خلال انتقاداته وهذه الطائفة وان كانت لا تتسم بالطابع الطرقي الا انها من المذاهب التي ارتكز انتحالها على مذهب صوفي اساسه التاويل الرمزي للقرءان على طريق الاسماعيلية التي لعبت دورا كبيرا في تبلور الفكرة الصوفية في الاسلام ! .. ومنها الطائفة الاندلسية التي اسسها محمد الاندلسي نزيل مراكش وكان رجلا مولعا بالطب والكيمياء فسب الائمة فافتى فقهاء الحمراء بتضليله وزج به السلطان في غياهب السجن .

وقد ظل المغرب خلال العصور الاولى بعيدا عن الطوائف الضالة وعن النظريات الشاذة التي كانت تعصف اذ ذاك بالشرق وقد شهد ابو بكر الطرطوشي الذي صنف كتابا في البدع والمحادثات في رسالة وجهها من الاسكندرية الى سلطان المغرب بان اهل المغرب هم المشار اليهم في الحديث الشريف « لا يزال اهل المغرب ظاهرين على الحق » لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والاحداث في الدين » !

فنحن لا نكاد نجد اثارة بدعة جافية في ربوع المغرب قبل القرن السادس ولا يمكن ان نعثر فيما صنف خلال القرون الاولى كالتشوف على اشارة الى شذوذ عند الصوفية او صدور دعاوي نابية عنهم لان التصوف كان اذ ذاك مطبوعا بالباطنة ولم يكن الصوفية يختلفون عن بقية الناس الا بكثرة العبادة وتلاوة القرءان وسرد المأثور من الادعية وكانت الاذكار نفسها مقتبسة من الآثار الواردة ومن القرءان من ذلك بعض الاحزاب لاسيما احزاب الشاذلي التي تتالف مطالعها من سلسلة آيات ولم يكن لبس الخرقة والمرقعة صفة لازمة للصوفي المغربي الا اذا جاء ذلك عفوا عن طريق الزهادة في متع الدنيا وكانت الرباطات عبارة عن مجامع لقراء العلم وتلاوة القرءان والجهاد فاذا طالعت تشوف ابن الزيات وجدت ان كثيرا من رجاله كانوا «معلمين» او مدررين يعلمون القرءان للصبيان !

وكان الامر على خلاف ذلك في الشرق حيث ترجع معظم المستحدثات الشاذة الى القرن الثالث كوحدة الوجود والحلول والتحدث بلسان الحقيقة المحمدية والايغال في لبس المرقعات والدساس

(51) عدد الربط والروايا في ستة سبع واربعون محاذية للبحر داخل المدينة والارباض (اختصار الاخبار لمحمد بن القاسم الانصاري Hespéris م 12 عام 1931 ص 155 .

الادعياء في صفوف النزهاء حتى كان القشيري ينشد اذا جلس اليه الصوفية وعليهم الهيآت والمرقعات ابياتا منها :

اما الخيام فانها كخيامهم

وارى نساء الحي غير نسائها

ثم يقول اما الهيئات والمرقعات فمعروفة واما القلوب فمنكرة وكان الجنيد ينشد :

اهل التصوف قد مضوا

صار التصوف مخرقة

صار التصوف ركوة

وسجادة ومذلقة

غير ان الفكرة الصوفية ما لبثت ان تشعبت فتسرب اليها الانحراف والشذوذ بعد القرن الثامن الهجري على اثر انتشار الطرقية واندساس الادعياء في الزوايا والرباطات فانتحل الكثير المذهب الصوفي لاغراض لا تمت الى الروح بصلة واصبح التصوف عرضة للافتيات يستغله كل من يريد التوصل الى اغراض الدنيا عن طريق الشعوذة والتدليس على العوام والدهماء فتجردت الطرقية من شتى مظاهر الرواء والسمو والجاذبية والجمال

وبدات الفكرة الصوفية المغربية تتبلور منذ القرن الثامن محاطة بهالة من الشكليات المستحدثة وما زال التراث الصوفي يتضخم ويتسع الى اواخر القرن الثاني عشر حيث اتضحت الخطوط واكتملت الرسوم والحدود بفضل ذلك النبع الفياض من التاليف التي ترجمت للصالحين ومناقبهم وطرائقهم.

والحقيقة ان التصوف بدا يتدهور منذ اصبح في متناول العوام تلوكه السنتهم في غير هدى ولا اتزان ولن اضرب لك سوى مثل واحد وهو طريقة ابي محمد صالح دفين اسفي وتلميذ ابي مدين الغوث فقد كان اماما ذائع الصيت يرد عليه الصوفية حتى من مصر للاخذ عنه وانتشرت طريقته خلال القرن السابع فكثر تلاميذه في الشام وبلاد الكنانة حتى مدحه البوصيري بقصيدة طويلة مطلعها :

قفا بي على الجرعاء من جانب الغرب

لفيها حبيب لي يهيم به قلبي

غير ان طريقته هذه التي كانت سنية المعالم ما لبثت ان انحرفت بما دسه فيها الدخلاء والادعياء واصحاب الاغراض من الدجاجلة والملبسين .

وفي القرن الثامن ظهر ابن خلدون بكتابه « شفاء السائل » فرد الطرقية الى اصولها وحلل خصائص الصوفية الحقيقيين ليتميزوا عن الادعياء.

وفي القرن التاسع برز محتسب الصوفية الامام الناقد الشيخ زروق بكتابه « عدة المريد الصادق من اسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت »، وقد علل انتشار المبتدعة والادعياء بانتقاص الايمان والجهل باصول الطريقة واعتقاد ان الشريعة خلاف الحقيقة (وهذا عنده من مبادىء الزندقة) وحب الرياسة مع الضعف عن اسبابها ثم اكد ان الصوفية الحقيقيين انفسهم عرضة للخطا وان مقالاتهم يجب ان تعرض على الكتاب والسنة وان الفقه والاصول شرطان في التصوف فلا تصوف الا بفقه .

وقد تعرض الى الاسس العملية التي بنى عليها الطرقيون مددهم فذكر انهم قرروا مخالفة النفس بكل وجه وغلطوا في هذا الاطلاق لان المقصود موافقة الحق بمخالفة النفس لا مجرد مخالفتها واستشهد بقول عمر بن عبد العزيز :

« اذا وافق الحق الهوى فذلك الشهد بالزبد »

وانهم تجردوا عن المعتادات بدلا من الانس بها وتغالوا في بعض المظاهر كتوفير ما تحت اللحية وادخلوا على انفسهم المشاق والاجر على الاتباع لا على قدر المشقة وقد اشار الى الفتنة التي وقعت في الاندلس في القرن الثامن حول قضية اتخاذ المشايخ حتى تضارب الناس بالنعال وكتبوا الى البلدان الاسلامية يستفتون ولا شك ان سبوب تلك الفتن كانت نتيجة مباشرة لانحراف التصوف عن الجادة وتدخل العوام في دقائقه ، كما كان ابو المحاسن الفاسي ينهي عن ذلك مؤكدا ان كتب الحاتمي .وابن الفارض « تسد على الناس باب الفتح» حسب تعبيره ويدعو الى الادمان على حكم ابن عطاء

الله . والشعراني (52) نفسه كان ينهى مريديه عن قراءة كتب التصوف والتوحيد المطلق كمصنفات ابن عربي وغيره من « غلاة الصوفية » (البحر المورود ص 274) وهذا لا يتنافى مع ما جاء في مقدمة اليواقيت والجواهر من الدعوة الى كتب ابن عربي فانه احترس هناك ـ كما يقول زكي مبارك ـ حين اقنع المريد بأن ما جاء في كتب ابن عربي مخالفا للشرع انما هو من وضع الدساسين .

كما حمل اليوسي في محاضراته حملة شعواء على ادعياء الطرقية ورسم لنا صورة عما انتهى اليه التصوف المغربي بسبب من اندس في حظيرته من مغرضين فقد قال : « كم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون او معتوه او موسوس او ملبس فيقع به الاغترار للجهلة الاغمار .. وقد يشايعه من هو مثله من الحمقى ومن الفجار » (ص 39) ومن الغرب ما حكاه اليوسي (ص 40) ان رجلا ورد على سجلماسة واتسم بالصلاح فاقبل عليه الناس ثم تبين بعد انه يهودي .

وكانت البادية المغربية اكثر ايغالا في الابتداع واشد انحرافا عن الروح لغلبة السذاجة على اهلها الذين كانوا يلغون في التبرك بآثار الصالحين حد الشذوذ .

وفي القرون الاخيرة اختلت المقاييس وتشعبت الدعاوي واستفحلت النحل فكنت ترى افواج الناس يقصدون ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه كل سنة للوقوف به يوم عرفة ويسمون ذلك حج المسكين وتجد آخرين يسمون انفسهم بأهل الخواطر يتجمعون بأحد مساجد عدوة الاندلس للتحدث عن الخواطر وعرضها على الشيخ وتاويلها غير ان علماء الصوفية كانوا حريصين على فضح الدجاجلة الذين يندسون في حظائرهم التماسا لاعراض الدنيا وحطامها على ان دعاة السلفية امثال الطرطوشي وابن العربي المعافري وابي محفوظ راشد من المغاربة وابن القيم وشيخه ابن تيمية وابن الجوزي من المشارقة قد تشبعوا هم انفسهم بالتصوف السني واذا رجعنا بين المتاخرين الى سيرة محمد عبده وجدنا تلميذه مصطفى عبد الرازق يؤكد في الكتاب الذي خصصه لترجمته ان الشيخ درويش الر بتربيته الصوفية في الاستاذ ويعلل هذا التاثير قائلا : « اذا كانت التربية الحديثة تدعو الى تهذيب الاذواق بفنون الجمال الحسي فان التربية الصوفية تدعو الى تلطيف السر بانواع من الرياضة » وقد جاء في ملخص سيرة عبده المنشور في المجلد الثامن من المنار » انه لكثرة الانهماك في الذكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في احوال القوم ومقاماتهم يخرج (اي الاستاذ) عن حسه ويزج في عالم الخيال او عالم المثال كما يقول فيناجي ارواح السالفين » وقد كان التصوف والتفسير هما «قرة عين الاستاذ» على حد تعبير مصطفى عبد الرازق غير ان جمال الدين الافغاني « خلع محمد عبده من التصوف بمعنى الدروشة والانقطاع الى التحنث والرياضة الى معنى للتصوف جديد (ص 74) وقد ترجم محمد عبده شيخه الافغاني في صدر رسالة الدهريين فوصفه بانه « حنيفي مع ميل الى مشرب السادة الصوفية رضي الله عنهم » .

وحمل زكي مبارك على الصوفية ما شاء له فكره الثائر وقلمه الجامح ولكنه عاد آخر الامر فقال في كتابه « التصوف الاسلامي » : الصوفية هم الناس ومن عداهم اشباح بلا ارواح » (ج 2 ص 205) وقال : « ان الصوفية اعقل من الادباء واشرف سيلقى الصوفية ربهم راضين مبتسمين اما نحن فسنذهب الى النار في ركاب امريء القيس الذي انذره الرسول » (ج 2 ص 322) .

وقد قدر للمعاني الصوفية الرقيقة ان تستهوي جميع اصناف المثقفين في مختلف العصور ولكن كل طائفة نظرت الى اسرار التصوف من خلال مزاجها واللون الخاص الذي تكيفت به روحها في الحياة وقد لاحظ ذلك زروق في قواعده (القاعدة رقم 59) .

---

(52) ذكر الشعراني في « تنبيه المغترين » (ص 7) ان بعض الناس دس في كتابه البحر المورود في المواثيق والعهود وفي مقدمة كتابه «كشف الغمة عن جميع الامة » ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة واثار ذلك فتنة في الجامع الازهر ولم تخمد الفتنة الا بعد ان ارسل النسختين الاصليتين المجازتين من بعض مشايخ الاسلام الى العلماء الازهريين للاطلاع عليهما وقد اشار الشعراني في كتابه الى ما استحدثه كثير من مشايخ وفقراء عصره مما يخالف السنة حتى اصبحت اصول التصوف غريبة عند منتحلي الطريقة

واذا استعرضنا تاريخ الثقافة المغربية وجدنا ان اقطاب التصوف كانوا في نفس الوقت جهابذة الفنون وزعماء العلوم وقد ذكر صاحب « نشر المثاني» انه لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن الحادي عشر لكثرة الفتن وهم محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن ابي ابكر المجاطي رئيس زاوية الدلاء وعبد القادر الفاسي الذي تبلورت في عهده الطريقة الزروقية وغالب فقهاء افريقيا ـ كما قيل ـ تلاميذه وقد قيل في العربي ابن ابي المحاسن الفاسي ان به ختم علماء المغرب وكذلك والده وعمه ابو زيد الذي افاض ابو العباس المقري في وصف غزارة مادته لعلماء مصر عندما سألوه عن علماء المغرب فشبهه كما شبهه غيره بالسيوطي لوفرة علمه وقد تمحض ابو زيد لتربية المريدين وتلقين الاوراد على سعة علومه وذكر صاحب الديباج ان محمدا المقري تكلم في طريق الصوفية كلام ارباب المقال ودون في التصوف « اقامة المريد » و «رحلة المتبتل» و «كتاب الحقائق والرقائق» الذي شرحه زروق .

وقد تمخضت الحركة الصوفية عن نمو وازدهار الثقافة في ربوع المغرب لاسيما البادية ولا يخفى ما اسدته الزاويتان الناصرية والدلائية من اياد بيضاء في هذا الباب وقد كان في زاوية محمد بن وسعدن السوسي تسعمائة طالب يكسيهم ويطعمهم من ماله الخاص وظل مستمرا على مبرته هذه اربعين سنة .

وكانت كتب التصوف تدرس الى جانب كتب الحديث والتفسير فهذا ابو المحاسن الفاسي يدرس قوت القلوب والاحياء والشريشية في آداب السلوك ويلتف حوله خلق كثير وفي آخر حياته نفض يده من سائر العلوم الاخرى واقتصر على التفسير والحديث والتصوف وابو المحاسن هذا كان اذا توجه من فاس الى القصر تعطلت الاسواق او كادت لخروج الناس لمقابلته .
وهذا النفوذ الذي كسبه الصوفية حدا المرابطين والموحدين الى امتحانهم حيث استدعوا من الاندلس او افريقية امثال ابن العريف وابي الحكم بن برجان وابي مدين الغوث .

وقد هدات نوعا ما حركة الامتحان في عهد المرينيين الذين لم يكونوا يخشون امتداد نفوذ الصوفية لان الدولة كانت قوية الجانب قد انصرفت الى اتمام صرح الحضارة المغربية التي بلغت في ذلك العصر ذروتها . لكن سقوط الدولة المرينية كان على يد الصوفية بسبب ما اتسم به بعض امراء بني وطاس من ميع وانحلال .

فقد انتشرت شرارة الثورة السعدية من سوس فعمت البلاد ملتهمة ما تبقى من نفوذ الوطاسيين واغلب ما في الامر ان محمد الشيخ مؤسس الدولة السعدية ما لبث ان انقلب على الصوفية فقد امتحن ارباب الزوايا منذ سنة 958 وذلك خوفا على ملكه لما كان للعامة في اصحاب الطوائف من اعتقاد . وفي ايام زيدان تضعضع نفوذ السعديين واستقل المجاهد العياشي الصوفي بالامر في كثير من النواحي وكانت شوكة الصوفية قوية وجانبهم منيعا حيث بلغت الزاوية الدلائية عنفوانها .

وقد قام ضد زيدان احد الادعياء المتمهدين وهو احمد بن ابي محلى الذي توجه الى بلاد القبلة ودعا لنفسه فاستخف قلوب العوام .

ولما استقر الملوك العلويون بالنفوذ في المغرب قضى مولاي رشيد على زاوية الدلاء بعد معركة دارت بينه وبين اهلها في بطن الرمان اوائل المحرم عام 1079 هـ وهم السلطان المذكور كذلك بمحمد ابن محمد بن ناصر وجهز محلته للزحف الى زاوية درعة ولكنه عدل عن ذلك بعد ان تحقق صدق ولاية الرجل .

كما جدد المولى اسماعيل بعض الاضرحة التي لم تكن في ذلك العهد اكثر من مساجد تقام فيها الصلوات وترتل فيها آي القرءان والاذكار والدعوات فلم ير الملوك ما يدعو الى استنقاصها بيد ان الاستعمار وصنائع الاستعمار افسدوا جوانب من هذه الروح الطيبة التي كانت تسري في هذه البيوت الطاهرة .

ولعل من ابرز نماذج التصوف المغربي اي الفلسفة الروحية والخلقية المغربية رجلا تغلغلت مقالاته السيارة في قرارة النفوس فقومت اودها طوال اجيال متوالية وطبعت التصوف المغربي بميسم خاص افرغت منه الحقيقة الصوفية في قوالب شرعية وروح التوكل في صورة السبب ولطائف الروح واسرار النفس في اشكال مبسطة وذلك الرجل هو سيدي يوسف الفاسي الفهري ـ ويمكن

القول بأن نظريات هذا الرجل الخلقية والنفسية والالهية تتركز فيها خلاصة النظريات المغربية في هذا الباب .

ومن نظرياته الطريفة ان الرجل قد يؤخذ من العالم الادنى ليرقى الى العالم الاسنى وذلك عندما يتمحص صدقه واخلاصه وتضمحل انانيته فتتكشف في باطنه حقائق وتختلج في سره رقائق وتعرض له احوال وجدانية لا تنضبط ولا ترتبط بمعهود وقد تسمو روحانية الصوفي فيتجرد عن بشريته ويتحد اي في التوحيد لان الفناء هو اتحاد بلسان المجاز وتوحيد بلسان الحقيقة. وهذه الظواهر كلها ذوقية وجدانية (فمن ذاق ـ كما يقول الشيخ يوسف ـ عرف ومن لم يذق فلا حرج اذا سلم واعترف وهذه طرائف تقصر عنها العبارة ولا تلحقها الاشارة اذ لا يفهم عنك الا من اشرق فيه ما اشرق فيك) .

وقد تجلى ابرز مظهر للتصوف الحقيقي في المغرب في اقرار التسامح والسلام في المجتمع واسعاف طبقاته المعوزة واجراء الامدادات الموصولة لتخفيف وطأة البؤس فهناك مذهب صوفي مغربي بحت يرجع الفضل في وضع اسسه ونشر دعوته لرجل من أهل القرن السادس هو ابو العباس السبتي (53، الذي كان يرى ان لباب القوانين الشرعية هو الصدقة فكان يجلس في الاسواق والطرق ليحض الناس على البذل والجود مرددا بكلماته الخالدة :

(اصل الخير الاحسان واصل الشر البخل) وقد اشتهر مذهبه ايما اشتهار حتى نعته معاصره الحاتمي في فتوحاته المكية بصاحب الصدقة في مراكش .

وقد كان لهذه الدعوة الرها فاسست الملاجيء في مختلف انحاء المغرب حيث كان يأوي العجزة والفقراء والطلبة فيجدون الطعام السائغ والفراش الوديع وقد تنافس الصوفية في هذه المظاهرات الاحسانية فاضطر الملوك الى المساهمة فاسسوا الزوايا في الفلوات لايواء عابري السبيل واوقفوا لها الاوقاف الوفيرة .

ومن نماذج الاسلوب الادبي الرائع في التصوف ما كتبه ابن خلدون في مقدمة كتابه « شفاء السائل » حيث قال : « وقعني بعض الاخوان ابقاهم الله على تقييد وصل من عدوة الاندلس وطن الرباط والجهاد وماوى الصالحين والزهاد والفقهاء والعباد يخاطب بعض الاعلام من اهل مدينة فاس حيث الملك يزار وبحار العلم والدين تزخر وثواب الله يعد لانصار دينه وخلافته ويدخر طالبا كشف الغطاء في طريق الصوفية اهل التحقق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانية هل يصح سلوكه والوصول به الى المعرفة الذوقية ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تعلما من الكتب الموضوعه لاهله واقتداء باقوالهم الشارحة لكيفيته فتكفي في ذلك مشافهة الرسوم ومطالعة العلوم والاعتماد على كتب الهداية الوافية بشروط النهاية والبداية كالاحياء والرعاية ام لا بد من شيخ يبين دلائله ويحذر قوائله ويميز للمريد عند اشتباه الواردات والاحوال مسائله فتنزل منزلة الطبيب للمرضى والامام العدل للامة الفوضى » .

ثم تحدث عن اغراض التصوف ومصطلحاته فقال : « فبيان هذه الاصطلاحات يتضح الكثير من هذا الغرض » فمن ذلك تحليله للكشف عند الصوفية بقوله : « وبيان ذلك ان المبصر اذا راى شخصا ثم غمضت الاجفان دونه بقي متخيلا ثم اذا فتح اجفانه مرة اخرى رآه كما كان فبين الحالتين كشف »

وقد تحدث باسهاب عن هذه المصطلحات فقال : « اقتضى التعليم والمفاوضة في المجاهدة الخاصة المنفردة عن الجمهور الانفراد باصطلاح خاص يكون لهم في مفاوضتهم والفاظ مخصوصة بمعان من

---

(53) وجه ابن رشد الى مراكش عالما قرطبيا لدرس نظريته التي لاحظ انها مرتكزة على المبدا القائل بان « الوجود ينفعل للجود » وقد لاحظ التادلي في ملحق التشوف (الاعلام للمراكشي ـ فاس 1355 ج 1 ص 240) انه « يرد اصول الشرع الى الصدقة » وكان القرءان على طرف لسانه ولد عام 524 هـ ومات بمراكش عام 601 هـ وشيخه الفخار هو صاحب عياض ـ كان يجلس حيث امكنه الجلوس من الاسواق والطرق فيحض الناس على الصدقة » وكان يعبر رفع اليدين للتكبير للتخلي عن كل شيء والركوع بالمشاطرة والسلام بالخروج من كل شيء وان سر الصوم الجوع وتذكر الجائع والزكاة التدرب على البذل .

طريقهم كالمقام والحال والفناء والبقاء والمحو والاثبات والنفس والروح والسر والبواده والهواجم والخاطر والوارد واللوامع والطوالع والتلوين والتمكين والفرق والجمع وجمع الجمع والذوق والشرب والغيبة والحضور والصحو والسكر وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين والمحاضرة والمكاشفة والمشاهدة والمعاملة والمنازلة والمواصلة وعلم المعاملة وعلم ولنشر الى شرح هذه الالفاظ .. وهنا بدا ابن خلدون يستخلص من كل معنى تفاريعه الصوفية بعبارات لها مفهوم دقيق يدل على الاطار الخاص الذى استعملت فيه ومن هذه الالفاظ الارادة والتوبة والتقوى والورع والزهد والقناعة والتوكل والخشوع والتواضع والشكر والصبر والمراقبة والرضى والعبودية والاستقامة والاخلاص والصدق والمحبة والشوق والانزعاج والرجاء والخوف والقبض والبسط والهيبة والانس» وهي كلمات قرءانية تحدد النطاق الصوفي ومدلوله الاسلامي فى المغرب ويدل اندراج معظمها فى اللسان العامي فى المغرب بنفس المفهوم ان القرآن كان هو المصدر الاول الذي زود المعجم الصوفي بكلمات تفرعت عن بعضها كثير من الاشتقاقات وبذلك يكون القرءان قد امد الفكر الصوفي بالفاظ لم يوفق ماسينيون فى حصرها كالذكر والسر والقلب والتجلي والاستماع والاستقامة والاستواء والاصطفاء والصدق والاخلاص والرضى والنفس المطمئنة والراضية واللوامة والامارة والسكينة والتوبة واليقين والنور والحق وقد اغفل المستشرق الفرنسي مآت الكلمات كما يتجلى ذلك بوضوح من اللائحة الابجدية للكلمات الصوفية المقتبسة من القرءان (54) يضاف اليها ما تطورت معانيه عن طريق النحاة كالضمير والملحق والاشارة والمجاز والاقتران او المتكلمين كالعقل والعدل والتوحيد والعرض والصفة والصورة والقدم والثبوت والوجود او ما فى الاثر والحديث كسبحات الوجه والدرة البيضاء والكبريت الاحمر والاسم الاعظم والديك الابيض وعنقاء مغرب ومقلب القنوب وسبحات الجلال والقطبانية والغوثية والفردية والابدال والاوتاد والنجباء والنقباء او ما تسرب الى العربية من دخيل يوناني او فارسي او ارامي منذ صدر الاسلام او العهد الجاهلي كالافلاك والاكوار والازياج والمهرجان والدستور والكناش والترياق والديوان الخ ..

غير ان هذه المصطلحات الصوفية المعقدة لم يدخل بعضها للمغرب الا فى عهد المرينيين ضمن التراث الاندلسي اذ ان كتب التصوف قبل القرن الثامن كانت اشبه بكتب السير محشوة بآيات الوعظ القرءانية والاحاديث والاذكار النبوية

ممن ذلك ما عزز به التادلي الفكر الصوفي فى كتابه « التشوف فى رجال التصوف » (وقد شرع فى تصنيفه عام 617 هـ اي ءاخر الموحدين) من ءاي قرءانية تصف التقوى والخشية والمعرفة الالهية مثل قول الله تعالى : « ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » وقوله : « وعلمناه من لدنا علما » (ومنه العلم اللدني) وقد روى احاديث وفيرة لدعم نظريات الصوفية ومصطلحاتهم منها كلمة الابدال فى حديث انس بن مالك عن الرسول عليه السلام وقد ذكر الابدال فقال « كلما مات منهم واحد ابدل الله مكانه من المومنين واحدا » . ومنها التوسم فى الحديث الذي رواه البزار عن انس « ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم » وقد انتشرت هذه اللفظة بالمغرب عوض الفراسة حتى قيل فى العامية « فلان موسوم بالخير » .

ومنها الحثالة فى حديث مرداس الاسلمي «يذهب الاولياء الصالحون الاول فالاول وتبقى حثالة كحثالة الشعير او التمر لا يبالي الله بهم » (البخاري ـ كتاب الرقاق ـ باب ذهاب الصالحين) .

وبتحديد مفهوم «الولاية» نفسها مقتبس من الحديث فقد روى البزار عن ابن عباس : « قال رجل يا رسول الله من اولياء الله ؟ قال : الذين اذا رؤوا ذكر الله » (55) ومن مظاهر بساطة الاسلوب الادبي فى هذا العصر ما حدثنا به التادلي عن ابي زكرياء الرجراجي الذى كسر رجل تنفذ سموا بقوله : فربط رجله بجبائر وادخله فى خابية فكان يسقيه الماء ويطعمه التين والزبيب الى ان انجبر فذهب).

وهذا النص صورة لبساطة اسلوب الادب الصوفي في القرن السابع حيث لا يحتوي على اي لفظ تجفوه السنة العامة .

وقد حفلت كتب الادب وحتى الفقه بالتعابير الصوفية من خلال الادعية والتوسلات والابتهالات فمن ذلك قول عياض : « الحمد لله المنفرد باسمه الاسمى

(54) راجع كتابينا « المعجم الصوفي » و « المعجم الصوفي من القرءان »
(55) سنن ابن ماجه كتاب الزهد باب 4

المختص بالملك الاعز الاحمى الذى ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى الظاهر لا تخيلا ولا وهما الباطن تقدسا لا عدما وسع كل شيء رحمة وعلما » وورد من تسبيحات المهدي ابن تومرت : « سبحان من ارسى مهاد الارض الشامخات وارتفعت بقدرته السماوات ودبر الازمان بالنور والظلمات وتدكدكت لجلاله الغايات .. الخ » . ومن مناجاة ابي العباس السبتي « اللهم افضلت فعم افضالك وانعمت فتم نوالك وغفرت الذنوب فتكامل احسانك وسترت العيوب فتواصل غفرانك .. الهي كيف يحيط بك علم خلقته ام يدركك بصر انت شققته الخ .. » . ومن ادعية سيدي عبد السلام بن مشيش شيخ ابي الحسن الشاذلي امام التصوف بمصر : « اللهم صل على من انشقت له الاسرار وانفلقت الانوار وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم ءادم فاعجز الخلائق وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة وحياض الجبروت بفيض انواره متدفقة » ومن احزاب الشاذلي « اللهم انك تعلم اني بالجهالة معروف وانت بالعلم موصوف وقد وسعت كل شيء من جهالتي بعلمك فسع ذلك برحمتك » .

ومن الاندلسيين الذين عاشوا فى المغرب وتأثروا بنسماته الصوفية ابن الخطيب (56) السلماني الذي استجلى بروحه الوثابة الشاعرة مخابر الفن والجمال فقال : « الحب الحقيقي حب يصعدك ويرقيك ويخلدك ويبقيك ويطعمك ويسقيك ويخلصك الى نشأة السعادة ممن يشقيك » . اما فى الشعر فقد سقنا فى القسم الادبي من عناصر تطور اللغة ومن نتفا رائعة لا يمكن فصلها عن الادب العام ومن شعر الامام السهيلي الذى اصبحت الخاصة والعامة تلهج به :

يا من يرى ما فى الضمير ويسمع
انت المعد لكل ما يتوقع

يا من يرجى للشدائد كلها
يا من اليه المشتكى والمفزع

يا من خزائن رزقه فى قول كن
امنن فان الخير عندك اجمع

وقول البجائي (57) :

طيب يذكر الله فانك فانه
لاجل ما فاهت به الافواه

ما للفتى لا يرعوى وصباحه
ومساؤه يعظانه بسواه

تلقاه تياها على من دونه
ولسوف يعطشه الذى ارواه

وقول العلامة سيدي العربي بن الساتح رضي الله عنه مشيرا الى طريق الصوفية التى كنى عنها بالاتاي (وهو الشاي فى لغة المغرب)

واصل شراب حليفة الامجاد
واترك مقال اخى هوى وعناد

صفراء تسطع فى الكؤوس كانها
من عسجد عصرت باعصر عاد

تدعى الاتاي وذاك رمز ظاهر
يدريه من يدري من الامجاد

وقد كنى ايضا عن الطريق بالقهوة مستعملا الجناس بين اللون (لونها) والنهي (نهى) حيث قال :

اشرب اخي قهوتنا
ولونها اولوا النهى

ولا تمل لعاذل
عن لونها ولو نهى

ومن قول الحراق على نسق ابن الفارض :

اطلب ليلى وهي فيك تجلت
وتحسبها غيرا وغيرك ليست

---

(56) فى كتابه المخطوط « روضة التعريف بالحب الشريف » وقد نشر المقري جزءا منه فى نفح الطيب فى ترجمة ابن الخطيب (راجع كتابنا « الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب » الذى نال جائزة معهد مولاي الحسن بتطوان عام 1947) .

(57) الذخيرة السنية ص 55 وقد انتشرت فى المغرب الحكم العطائية وتداولتها الالسن وشرحها من المغاربة الكثيرون واصبحت تجري حتى على السن العامة منها « من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه » .

الم ترها القـــت عليـــك جمالهـــا
ولو لم تقم بالذات منك اضمحلت

بديعة حسن ولو بدا نور وجهها
الى اكمه اضحى يرى كـل ذرة

عزيز لقاها لا ينـال وصالهـــا
سوى من يرى معنى بغير هوية

اذا شئت ان تلقى السعادة والمنى
وتبلغ ما منـه الرجـال تـولت

فطهر بماء الذكر قلبـك جاهـدا
بصدق اللجا والغسله من كل علة

ومكن بكف الشـرع امـرك كلـه
فدونك ان لم تفعل البـاب سـدت

فنور سرى فى الكون صورة احمـد
به تهتـدي للـه كـل الخليقـة

ولسيدي قدور العلمي من المتاخرين : وهو من المنحون المقنبس من القرءان مع تحريف بسيط :

سبحان مـن قضـى وحكـم
وعلم الانسـان ما لم يعلم

سبحـان الدايـم بالـدوام
مـن لا يسهـى ولا ينـام

مول القدرة مـول الحكـام
الساكـن لقلـوب المومنيـن

سبحـان الواحـد الوحيـد
سبحـان المالـك المجيـد

يفعـل فملكـو مـا يـريـد
مـا لـه شريـك ولا عويـن

وقد استوثق التبادل بين المشرق والمغرب فى هذا المجال فى مظهرين اولهما انتشار طريقتين صوفيتين مغربيتين لكل من ابي الحسـن الشاذلـي الغماري وعلي بن ميمـون الفاسـي صاحب كتـاب « متفقهة ومتفقرة مصر والشام »58 بالاضافة الى نفوذ احمد البدوي الفاسي دفين طنطا ، وثانيهمـا انتشار مصنفات صوفية شرقية بالمغـرب ككتـاب الحكـم العطائية الذي صار الناس يحفظونه عن ظهر قلـب وقد عكف عليه العلماء فى شروح وفيرة كشروح ابـن عباد وزروق والقلصادي ومحمد جسـوس الفاسي والحراق وابن عجيبة التطواني ومحمـد بن عبـد السلام بناني والشيخ الطيب بن كيران الخ .. كما تبودلت رسائل منها جواب الشيخ الغرواني عن اسئلة الناصر اللقاني المصري وهي نموذج للتاويلات الصوفية المغربية للقرءان اما القصائد المغربية التى اصبحت تجري على السنة العامة فكثيرة منها ارجوزة حدائق الازهار فى الزاوية للبازغي والمقباس للوزير الفـاسي وديوان الحراق الذى نحا فيه منحى ابـن الفـارض وابن عربي وعبد الغني النابلسي فى وحدة الوجـود والتلبس بما يسمونه الحقيقة المحمدية وبعلو نفـس الحراق احيانا فيكاد يطاول سلفه ابن الفـارض فى رقة الاسلوب وسمو المعنى ومما يتصـل بالتصوف العام قصيدة لاحمد الشريشي السلوي الشاعـر الطبيب وقد شرحها كل من احمد السوسي واحمد ابن ابي المحاسن الفاسي وهناك كتاب يمكن ان يعتبر خلاصة للادعية النبوية التى جرت على السنة الصوفية بعد القرن التاسع وهي دلائل الخيرات الذى شرحه افراد من العائلة الفاسية وقـد انتشر فـي العالـم الاسلامي هو وذخيرة المحتاج للشيخ المعطي الشرقي وقد نحا المغاربة منحى الصوفية المشارقة فى مـدح الاشياخ بقصائد لا تخلو من معلومات تفـد المـؤرخ من ذلك دالية اليوسي فى مدح سيدي محمد بن ناصر الدرعي وهي « مشهورة بين اهل الادب » عارض بها دالية البوصيري فى ابـي الحسن الشـاذلي وابـي

(58) المتفقرة كالمتصوفة وهم الذين يتصنعون الفقر وهو التصوف بلغة المغرب وهي من الآيـة الشريفـة « يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله » . ويظهر ان السبب فى اقبال صوفية الشرق على كل ما هو مغربي الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه(باب الامارة) : « لا يزال اهل المغرب ظاهريـن على الحق حتى تقوم الساعة» وقد كتب ابن حجر فى فتح الباري على هذا الحديث مشيـرا الى روايـة اخرى عن احمد انهم ببيت المقدس بدل المغرب وكذلك عن الطبراني بهذه العبـارة « يقاتلـون على ابواب بيت المقدس» وفى هذا اشارة عميقـة الى الوضع الحاضر .

کتابخانه و مرکز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

العباس المرسي وقصيدة البوصيري هذه تدل على ما كان للصوفية المغاربة من مكانة فى نفوس صوفية الشرق (وقد مدح البوصيري كذلك ابا محمد صالح (59) بالتصوف وان كان قد اعتراه شيء من الانحلال فقد كان له كبير الاثر فى توجيه وتلوين جميع مرافق الحياة فاصبح الشعب يلهج بالادعية والاذكار ويتلو قصائد الغزل والمديح فى سماع لم تعد تخلو منه زاوية او رباط وخاصة بمناسبة المولد النبوي الذى بدأ العرفيون يحتفلون به فى سبتة ثم ماوك بني مرين فى باقي الحواضر وبذلك اندرج عنصر جديد طور لغة الضاد بالمغرب وطبع اللسان الدارج وخاصة منه البربري الذي اقتبس ما كان ينقصه فى هذا المجال فتقاربت الشقة بين الفصحى والعامية فى اللسانين .

(59) كان قطب الدين القسطلاني بمدرسة الحديث بالقاهرة كثير الاعتناء باصحاب ابي صالح الوافدين على مصر .